لا تغربي

شيرين شحاتة

لا تغربي
شيرين شحاتة
تدقيق لغوي : د/محمود عوض الله
تصميم الغلاف : عبير محمد
رقم ايداع: ٢٠١٦/٢٥٤٤٣
ترقيم دولي: 0 - 05 - 6594 - 977 - 978

دار فصلة للنشر و التوزيع
العزيزيه - منيا القمح - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org

مدير عام : عمر الحضري - مدير النشر : محمود محي الدين

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه
الطبعه الأولي يناير ٢٠١٧

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

لا تغربي

شيرين شحاتة

دار فصلة للنشر و التوزيع

مقدمة

الحب و الألم مرادفان لكلمة واحدة.. ألا و هي الحياة. طرفا خيطٍ يتصارعان سوياً على اجترارہ.. لمن منهما ستكون الغلبة؟ و لمن منهما ستكون الهزيمة؟ لمن و متى و كيف..؟ أم سيأتي هذا الرابض بابتسامته الساخرة (الموت) و يفر به منهما..

....

إهداء

إلى فقيرٍ قصرت يدي عن مساعدته..
إلى جائعٍ تواريت خجلاً منه
إلى مريضٍ ذاب ألماً وذبت معه حزناً
إلى لحظاتٍ اقتنصت منها السعادة فكفكفت بها الدمع
إلى كل من علمني حرفاً
إلى كل من مهد لي طريقاً لأسلك فيه
إلى كل من أضاء شمعةً داخل أسوار قلبي
فأنار حلكة العمر الذي كان
إلى لحظةٍ أصبو للوصول إليها
أنا أنتظرك..

- النهاية -

أطل من شرفتي الزجاجية فتبصر عيناي أكواماً من القش المتراكم هنا وهناك, وإذ بى أرى تلك الوجوه الصغيرة المبتسمة تلهو بأكوامٍ معبأة برائحة التراب الملوِثة لكل الأجواء, غير عابئين بذلك الغبار المعكّر لكل أطياف الحياة..

كم أود أنا هذا الرجل القاطن وسط هذه الجدران الأسمنتية أن أخلع عباءة هذا الرجل وأرتدى زى الطفولة فأعدو معهم وأُلون جسدي بذاك القش.

كانوا يتراشقون بكرات القش كما لو كانت كرات ثلجية منحدرة من فوق قمم جبال الألب مختلطةً بملابسهم الرثة.

كونك طفلاً هو مفتاحك السري لكي تنفذ داخل كل ما هو مستحيل وغير مرئيّ؛ فيباح لكل خيالاتك أن تغدو حقيقة, فليس لك إلّا أن تطلق لنفسك العنان لكي تحلُم وتحلُم وتحلُم؛ فيتحقق ذاك الحلم داخل عالمك الخاص.

قد نبتعد قليلاً بأجسادنا الشفافة فتمتزج أجسادنا بأشعتها البرتقالية اللون أو أن نقفز بين الغيمات الإسفنجية ألى أن نغفو من فرط الإرهاق و التعب.

ولكن هيهات! وهل للسعادة أن تدوم بعد أن يتسلل المشيب عالمك الجديد وأن تتحول من شخص قصير القامة إلى أخر عريض المنكبين؛ فعندها لن تستطيع أن تركُض إلى حديقتك المعلّقة في الفضاء بأقمارها الملونة وشموسها الملوّحة في

الأفق البعيد لكي ترتع وتلهو مع أزهارك الخاصة, بل سترحل كثيراً إلى شاطئك المموج بالألم.

،الألم.. تلك الكلمة الدُنيوية بأحرفها القليلة ومعانيها المضنية
فها هو الألف يقبل علينا بأنينة وأوجاعه، و أنتِ يا لامُ تترجلينَ نحو بساطكِ بلا وعيٍ ولا رحمة, و ختامك ميمٌ.. وياله من ختامٍ! يسدل ستائره على الموت البطيءٍ الذي يجتث المشاعر بإبتسامة خنجرٍ باردٍ نصله شديد الحدة، كم كنت أتساءل! ألا يَئن ذلك الخنجر لكل هذه الآهاتٍ أم أنه اعتاد على الطعنات مثل حامله؟

ويطرق نحو آذاني صوت الأذان، ذلك الصوت المحبب إلى الفؤاد؛ فأرتمي وسط كلماته وأنغمس في تكبيراته مستأذِناً أوجاعي أن تودعني..

الله أكبر, كن معي يا خالقي
فعبدك يقف بين يديك ظمأناً
أتوسل منك سكينةً تحيل الدمع أزهاراً
أعدو لعظمتكَ ساجداً
فقير النفسِ، مغترب المكانِ

وتمتزج الدعوات بالعبرات مع صوت ذلك الشيخ الجليل؛ فتذوب جوارحي مع تكبيراته أكثر وأكثر حتى تأسرني كلياً..

فأتجهت إلى حمامي الخاص لأتوضأ محاولاً أن أمحو بهذه المياه الباردة كل الصفحات التي تتراءى أمامي, صفحاتٌ لا تسأم من القذف بى بداخل فوهة البركان.

وهأنا أفرُ من غرفتي تلك, هابطاً درجات السلم الخشبي في هذا المنزل الريفي البسيط, منزل والدتي المسنة, إنها كل ما تبقى لى من الأهل والأقارب.

ذلك الوجه المليء بالتجاعيد, تكسوه السمرة من حرقة أشعة الشمس المعانقة لها في صباها, تلك اليد ذات الملمس الخشن صك لكرامتها ونكرانها للذات؛ فقد توشحت بالسواد وأنا طفل صغير لم أتجاوز العاشرة..

ما زالت صرخات النساء تغزو كل حواسي, تقتلعني بوحشية من عالمى الطفولى و تلقى بى إلى المجهول, فأركض وأركض محاولاً تفادي كل هذه الصرخات, ولكن لا تلبث إلا أن تمكث بداخلي.

هاهي تلك المرأة الحاصلة على قدرٍ بسيطٍ من التعليم تتوسط الجميع, تتلقى عزاه بيدٍ وتمسك بي بيدٍ أخرى, أجدها الآن وحيدةً على أريكتها الخشبية مُمسكةً بيدها اليمنى مِسبحة بألوانٍ ربيعية تدل على كونها امرأة, حتى لو جاوزت الستين.

أدنو بقدماي المتثاقلة من والدتي الغالية, فأطبع على يدِها قبلة صغيرة, فإذا بها تطلق من عينيها نظرة مختنقة الدموع.

-مالك يابني؟ عايزاك أقوى من كده.
-ادعيلي يا أمي, أنا في كل ثانية بطلب من ربنا الراحة, أنا تعبت أوي.
-حرام كده ياحبيبي, محدش بيعترض على مشيئة ربنا, أنتَ دلوقتي رايح بيت ربنا, استغفر طول ما أنتَ ماشي, وان شاء الله ربنا يصلحلك حالك يا إبراهيم.

إبراهيم.. نعم, أنا إبراهيم عبدالحميد, ٣٨ سنة, كم وددت لو يسقط هذا الاسم من دفتر المواليد أو أن يعلن عنه في صفحة الوفيات بإحدى الجرائد

الرسمية! لعلي أرتشف قليلاً من السعادة فينتعش هذا الجسد المليء بالكدمات, أنا إبراهيم عبدالحميد, والد لطفلين, هبة وأحمد, أو بالأحرى.. كُنت والداً لهما, وكُنت مرتبطاً بفتاة أحلامي منى.. كم أود أن أمحو كُنت من قاموس كلماتي أو أن أتحلى بقليلٍ من الشجاعة فأسدل سيفي مباشرة في اتجاهها أو نتصارع وجهاً لوجه, فإما مصرعها أو مصرعي أنا!

لكنها أبت أن تعيد لي أنفاسي مُلقية بسعادتي إلى دوى ليس له بداية أو نهاية, كُنت أنا, الفاقد الأهلية للحياة, أمتلك كل خزائن السعادة إلى أن أتيتِ يا (كُنتُ)..

كنتُ أنا وكنتِ أنتِ
إلى أن أتيتِ يا (كُنتُ)
كنتِ ربيعي وكنتُ عبيركِ
إلى أن ابتسمتي يا (كُنتُ)
فلتحزمي أمتعتكِ بعيداً عن حياتي!
أو لأكون معهم في أحضانك يا (كُنتُ)..

******

- الجامعة -

أخشى أن يبادر إلى خاطركِ يا مليكة الروح, أنني قد نسيتك أو قد أنساكِ, يا قاطنة الفؤاد؛ فأنا ما زلت وسأظل أسير أسوارك, أعدو مستنشقاً عبير أزهاركِ, تقتلعني شمسك؛ فأُرسم بين أغصانك؛ فمنكِ كل إبتساماتي وكل آناتي, و معكِ كل أوقاتي, وإليكِ كل اتجاهاتي, وذكرك كل إشراقاتي, وغيابكِ كل ظلماتي.. وأنتِ كل عقلي وهفواتي!

ما زلت أراكِ يا مُنيايا تتوسطين الطلبة في حرم الجامعة, فتاة سمراء البشرة, نحيلة الجسد, رقيقة الملامح, قوية الإرادة. كانت قوتها مستمَدة من قسوة وحدتها؛ فأنتِ فتاةٌ وحيدةٌ لأبٍ وأمٍ قد وافتهم المنية, تقطنين مع خالة لكِ مسنّة, وبالبرغم من كل ما مر بكِ من مواقف جسيمة, أراك دائماً تبتسمين, تعدين نحو الغد بخطى متسابقٍ قد أوشك على اقتناص الفوز.

ما زلت أرى ذلك الوميض نحو حياةٍ أفضل وأجمل, والذي أبيت أنا هذا الحبيب الأناني أن أزيده اشتعالاً؛ فتنطلق منه الفراشات الصغيرات لتحيك لأيامي رداء الربيع.

وكان لا يعرقل هذه الحركة المستمرة, وهذا الأمل المنشود إلا دموع طفل, أو أنين رجل أو امرأة عجوز؛ فإذا بهذه الضحكات المتسابقة تغدو بكاءاتٍ لا متناهية.

كُنت أنا وأنتِ زملاء في نفس الكلية, فأنا ذلك الطالب المغمور ذو الأصول الريفية, وأنتِ تلك الفتاة الرقيقة المفعمة بالحياة, كانت كل الأعين تترقب مجيئك, تناجي بعضها وتتساءل عن موعد لقائك, وكُنت أنا من بينهم, وكم أبى النعاس أن يطلق حريتي حتى يزورني طيفكِ ويهنأ قلبي بأوقاتك, ولكن هيهاتٍ لنجمة في السماء أن تخاطب شخصاً مجهول الهوية..!

أنا المجهول الهويةِ في البلادِ
أسير الخطى مشتاق الفؤادِ
لنظرةٍ, للمسةٍ
لعله ينجو من ساعات العتابِ
تؤنبني عيوني في غياب رؤياكِ
ويعاتبني شوقي وكيف أنساكِ
وأنساكِ وأنساكِ
وإذ بي أنسى كل ملامحي وكل أيامي

ولكن هل أصدق ما تراه عيناي, فإنها تدنو باتجاهي مع مجموعة من الطلبة, أم أنها إحدى خيالاتي المعتادة؟ ها هو صوتها الملائكي يودّع كل اضطراباتي داخل قارورة محكمة الإغلاق, ما زالت تلك الثواني تصارع روحي من أجل أن أتنفس..

-لو سمحت, أنت إبراهيم عبدالحميد, زميلنا في الدفعة؟

لم استطع الإجابة يا أميرة أساطيري, وكيف أتمكن من الإجابة وبيننا لقاءاتٍ عدة في عالمي, إنها ليست المرة الأولى التي استمع فيها إلى صوتك أو يدار بيننا أحاديث, قابلتكِ في عالمٍ أجمل من عالمنا هذا, قابلتكِ على أرض خيالي حيث يتمكن المُحِب أن يقابلَ فيه من يهوى, أن يشاطره أطراف الحديث, أن ينطلقا سوياً في مكوكهما الفضائي نحو سطح القمر؛ ليبذرا فيه بذور الحياة, ويروياه برحيق الأمل؛ فيغدو سطحه كُرمة مخضرة الأشجار, تحلق في سماه

طيورٌ مزدوجة الأجنحة تُغرد بموسيقى تأسر الألباب.

ولكنني أراك الآن, لست وحدكِ كما اعتادت عيناي, أراكِ مع مجموعة من الزملاء, إذ أنا الآن معكِ على سطح الأرض, في فناء كليتنا! وبدأت تحدقين بنظراتٍ غريبةٍ لكل من حولك, وللمرة الثانية خشيت أن تكون الأخيرة..
-أنا زميلتك منى, كنت أنا وزمايلك يابراهيم عايزين نكلمك في حاجة مهمة.

ولابد من الرد رغم أني أود أن أطيل اللقاء..
-أنا تحت أمر حضرتك في أي حاجة.
وإذا بكلٍ من حولي يضحكون ضحكاتٍ هيستيرية يتخللها -حضرتِك – حضرتِك-؛ فهويت مباشرةً في بئر الخيبة, كم كان شديد العمق والظلمة. لم أتمكن من استنشاق هواء سمائي إلا عند سماع صوتك يخترق كل حواسي.

-عيب كده يا جماعة, إبراهيم زميلنا في الدفعة, ياريت نكون ألطف من كده.
إبراهيم للمرة الثالثة منكِ يا منايا, إنه يوم معجزاتي فنظرت إليها متمنياً أن تطول هذه اللحظات أكثر وأكثر, أستحلف الدقائق أن تصبح ساعات, وأستعطف الساعات أن تكون أياماً, مقسماً عليهم ألّا يرحلوا, ولكن لابد للصمت أن يتخلى عن ردائه قبل أن تهجر هي؛ فتتخلى عنه سماه بنسائمها العطرة وتقذف به إلى أرضٍ جرداءَ شديدة الظمأ..

-طيب, إيه اللي ممكن أساعدكم فيه؟

-أكيد أنا جيت بس عشان أسألك تشارك معانا في مشروع خيري لتوعية أطفال القرية الأيتام ومحو أمّيتهم. أنا عملت بحث عن قرى متعددة مع الأستاذة نهال رئيسة القسم بالكلية, واخترنا القرية المناسبة, وكمان بحثت في كل ملفات الطلبة, ووجدت إن لك أصول ريفية؛ فقلت إن ممكن تشارك معانا في المشروع

الخيري ده.

وظللت أُخاطب هذه النفس القاطنة بداخلي, أُحاول أن أنتزع منها الكلمات, كيف غدوت أجوف اللسان, فاقداً للنطق فجأة؟ محاولاً أن أعلو بهذا الصوت المختنق في هذه الحنجرة المكبلة بقيود الزهول, فأغزل منه كلماتٍ تحتفظ بما تبقى من ماء وجهي..

-طبعاً أنا معاكم, أنا عشت طفولتي في قرية بعيدة عن هنا بس أكيد المشاكل والظروف شبه بعضها. أي وقت أنا جاهز للمساعدة.

ها هي تتسلل إلى ناظري أبتسامتها لإنهاء هذا الحوار, مُلقية من عينيها سؤال
-من أنتَ؟-

سجينٌ أنا في هواكِ
أحمل في هذا القلب خُطاكِ
أطير من سماكِ وإلى سماكِ
أناشد الأمواجَ بالنظراتِ
والأحلامَ بالعبراتِ
بأن أرسو في ميناء عيناكِ

وقد ذهبتِ, ولِمَ ذهبتِ فأخذت معكِ كل الأشياء, وقطفت كل الأزهار والرياحين, مضيتِ فتوارت الشمس من جديد, وأعلنت العصافير الرحيل, واستسلمت الأحلام للأحزان.

ذهبت يا حديثة اللقاء على أرض الواقعية فغابت معك إبتسامة طفل صغير منتظر مجيء أمه لساعاتٍ وساعاتٍ حتى يخلد للنوم من فرط التعب.

- الأسير -

كل هذه الصفحات كانت تتسابق إلى مُخيّلتي فتتنازع مع نبضاتي الحالية..

وإذ بيد شيخ من شيوخ القرية تمتد إليَّ لكي تصافحني, ولكن لو يعلم أنّها لم تكن تصافحني بل تصفعني بعصا مدببة حادة الجوانب, أفِق أيّها الشارد! إنك ما زلت تائهاً في سكرات ماضيك, لقد مُحي بكل ما فيه, بدقائقه, بأيامه, بشمسه, بسكون ليله, ببرودة طقسه وسطوة حره, فأنتَ بلا ماضٍ, أُجتزت أحرفه بفأسكَ, فلا تبكِ؛ لقد انتحر كل دمعك, وشحب ضياء فجرك.

فلتصمت أيّها الشيخ! فكلماتك قنديلٌ يُلقي بالزيت المغليّ في قلبي؛ فيوقد فيه النيران.
وما زالت جملتك -البقية في حياتك يا بني.- تُلقي في أذناي قصيدة الوداع.

كفاكم عزاءً! كفاكم نحيباً! فالقلب يدمي قبل اللسان, والروح المعذبة تُفنَى قبل الجسد, اصمت أيّها الشيخ! منى لم تمت, لم أفقد هبة وأحمد!

ولكنك تُصر على إكمال حديثك, كم أود أن أفر منك! أن أنشب في الثرى مرقدي لأُسقط جسدي فيه فاستتر عن عالم الأحياء, وإذ بحديثك مجدداً يتخطى حاجز عالمي..

-إن شاء الله يا ابني هتقابل أحبابك في الجنة.

وإذ بقدماي تبحر نحوك, ها هو جسدي الهزيل يهب واقفاً من مرقده, منصتاً إلى كلمة -الجنة-.

آه إنها كل ما تبقى من أحلام, إن كان يسمح للبائس أن يتمنى, اتوق إليك كما تتوق الروح المعذبة أن تطفأ بنور المغفرة, يا الله متى سيعلن هذا اليوم عن لقائي, وإذا ببرعم الإبتسامة يتسلل فيقفز فوق شفتاي, ها هو فجأة يطرق على بابي فينثر في حديقتي بذور زهور الإبتسامة, توقظني من غيبوبة جراحي.. استمر يا شيخي؛ فأنا مِلك بنانك.

-لازم تصبر شوية وتقوّي نفسك أكتر من كدة, اللي راح مبيرجعش.

كفى! توقف! لا تكمل! لقد ذكرت قرب اللقاء, فلما تخبرني بأنني سوف أظل أصارع هذه الحياة طويلاً.
وداعاً يا زهوري الصغيرة.. أراكِ مودعةً, متساقطة البتلات, متهالكة السيقان, مبتورة الجذوع.
-تعال معايا يا ابني عشان ندخل نصلي في الجامع.

أعطيته ما تبقى منّي ليدخلني إلى هذا العالم الروحاني الخالي من كل الأكاذيب, ومن كل الأحزان المدّعية من باقي البشر, لقد كان مسجداً بسيط البنيان تملؤه أوجه تتسم بالبساطة وثياب يمتلكها الفقر, ولكن كانت أرواحهم مفعمة بحب الله, هذا الحب الذي يتغلغل بداخل تلك القلوب الطامحة لرضا الله وجنة الخلد.

ووجدتني أصلي وأصلي وأطيل الركوع والسجود؛ فمع السجود, ننعم بسر هذا الوجود, نلقي برداء الأحزان, ونرتدي رداء النسيان, نسيان الألم القابع في صدورنا.

نتجرد من كل الدموع المخرقة وننخرط في دموعٍ أخرى تتوسل المغفرة وأُختم بنظرة إلى السماء, داعياً إلهي أن يغمدني برحمته..

سبحانك ربي, رب العطاء
تهبُ عبيدك وقتما تشاء
فإليك إلهي حبي ورجائي
بأن تغفر لي ما مضى من حياتي

هأنا أتجه مرة أخرى إلى طريق العودة , عودتي إلى اللا شيء, أو بالأحرى إلى غرفتي المليئة بالصفحات المتصدعة.

ذاك الدولاب القديم الرباعي الشكل الذي يقطن بداخله صندوق خشبي, صندوقٌ يحمل بداخله السعادة والألم, قطعة من الجنة والنار.

كم أود أن أطلق سراح هذا الصندوق! أن تلامس أناملي ثناياه الخشبية, أقلّب بيداي صفحاته الممزقة.

فأقصى طموحاتي هو أن أُلقي عليه نظراتٍ متباعدة, تمر النظرة تلو الأخرى؛ حتى تختبئ كليّاً بداخلي, ومع ذلك فأنا أَحفظ كل صفحاته عن ظهر قلب, به مراحل حياتي السابقة والحالية؛ فلن تكون لي صفحات بعد الآن, مجرد صفحات بيضاء يقطنها الألم.. فكم أنا أسيرٌ لك!

إنني هنا الأسيُر لأحزان السنين
فهل سيأتي يومٌ وينتهي هذا الأنين؟
أتراني سأُحلق يوماً؟
فوق هذا الجسم الأليم

وأغدو عصفوراً يطير بجناحيه
فوق هذا الكون الجسيم
أرتشف من الأزهار الرحيق
وأعدو نحو العبير
أتمايل هنا وهناك
أُلقي الأحزان من هذا القلب الجريح
أتُراني سأطير يوماً؟
وأفر باكياً من أسر السنين
أستلاحقني دموعي؟
أم تراني سأتركها تبكي من هرب السجين؟

- الموعد -

السبت, الرابعة عصراً
, إنه موعدي المنتظر, يوم تورد حديقة أزهاري, رغم قسوة البرد وهطول المطر, حديقةٌ مكتظةٌ بكل أطياف الورود؛ فإذا نظرتُ إلى البنفسجي, يخطف عيني الوردي, وإذا استنشقت زهرتي البيضاء, أجد الحمراء تلوح بعطرها الأبدي. متوسطاً كل هذا قوس قزح كي أبحر بزورقي بين الوانه.

فمعك يا حبيبتي أصبح الخريف فصل تفتح الأزهار, والشتاء صيفاً مشمس الأوقات, والليل تكحل بمولد الشروق.
ومع إشراقة هذا اليوم داخل مدينتي الجامعية, بدأت أُلاحق الدقائق بأن تستقدم الساعة الرابعة.

وكيف للوقت أن يكون بكل هذا الظلم و هذة القسوة؟
وإذ بي لا أتمكن من الإنتظار؛ فأسبق كل الأوقات وأتجه إلى كليّتي قبل الموعد بنصف ساعة, وأنتظر, وأنتظر.. وها قد جاءت الساعة الرابعة! كم أُحب يوم السبت..! وأرتحل عَدْواً وطائراً ومهاجراً نحو رقم أربعة.

وإذا بالدقائق القليلة تستقر في فؤادي كالساعات الطويلة, وبدأت أتصبب العرق وأناملي ترتعد من قسوة الطقس وبرودته..
أتُراها قد نسيت الموعد أم ضلت الطريق؟
أم تُراها لا تراني؟

فكيف لا تراني وأنا الغريق؟
وكيف تنسين الموعد وأنتِ يا فتاتي دقيقةُ المواعيد؟
وكيف تضلين الطريق؟
فهذه كليتنا, وهذه جدرانها, وهذه أرضها, وهذه سماؤها..
فكيف؟ وكيف؟ وكيف؟! مئاتٌ من ال(كيف؟) تتباري في هذا العقل الصغير.

حتى رأيتك.. فتلونت كل لحظاتي.
كنت ترتدين فستاناً برتقاليّ اللون يخالطه خيوط صفراء. كم تبدين رائعة وشعاع الشمس الآذن للرحيل يمتزج مع عيناكِ..!
كانت ثواني أشبه بالحلم, قصيرة, جميلة, وآسرة.

تثيرين غيرتهن جميعاً
كلاً بمن على الأرض أسيراً
فما لحسنك مثيلاً
ولا لهواكِ بديلاً
فأنتِ أنتِ
والشوقُ منكِ وإليكِ
فلا تسألنَّ المحب عن حبيبه
فإن فراقه قد زاده أنيناً
فاتركوه وقلبه في غيمات الليل حزيناً
أهواك من بينهن
والعمر يشتاق لطي آلام السنين
وأهواكِ, وهل أشتكي؟
وأنتِ في الفؤاد خليلة
ولِمَ أشتكي؟
فلن أكون لغيرك رهيناً؟

وإذا بها تتجه ناحيتي..
-أنا أسفة يا إبراهيم. المواصلات كانت صعبة أوي؛ عشان كده أنا أتأخرت.
-لا متعتذريش ولا حاجة, أنا لسه جاي دلوقتي.
أعلم أنّي قد كذبت, ولم أكن معتاداً على الكذب..
فلتسامحيني يا زهرة بستاني؛ فأنا لا أقوى على قول الحقيقة وإن كنت أخشى أن تكون عيناي قدمت لكِ وثيقة اعتراف.

وإذ بها تكمل حديثها بنظرات هاربة نحو السماء..
-دلوقتي هيجي باقي زمايلنا, مش قادرة أقولك أنا سعيدة أد إيه بالخير اللي إحنا هنعمله, عارف يعني إيه تعلم طفل يتيم وفقير وتزرع جواه مش بس العلم, كمان الحنان؟ يمكن أكون أنا أكتر واحدة حاسة أد إيه الطفل اليتيم بيحتاج لمسة إيد, نظرة حنينة مع العلم اللي إحنا هنعلمهوله.

كُنت أُنصت إليكِ وأنتِ تتحدثين كالمسحور الذي يستمتع بكل أنواع السحر المباحة, كُنت أنا الطفل الذي القى القدر في طريقه مصباح علاء الدين, وإذا بالجنّي يستيقظ من سباته العميق فرحاً؛ فقد تخلص من الأسر بعد طول سنين, فيقول له: -شبيك لبيك-؛ فيملأ له الغرفة بكل أنواع الحلوى والمصابيح الملونة.
هل تدركين أنني أتمنى ألّا يحضر باقي الزملاء.. أن يتأخروا, ينسوا, أو حتى يفقدوا الذاكرة! أيّن كانت الوسيلة, فأتمنّاها نتيجة واحدة, وهي عدم مجيئهم.

أعلم بأنني في هذه اللحظة شرير, ولكن القليل من الشر في الحب مباح..
وبالطبع ليس كل ما يتمنّاه المرء يدركه؛ فقد حضر باقي الزملاء وترجّلنا إلى باص الكلية المخصص, وقد كانت معنا الدكتورة المسئولة عن هذا العمل, وهي تحب منى كثيراً وتعتبرها مثل ابنتها.

جلست في باص الكلية وحيداً, أما منى فجلست بجوار الدكتورة نهال يتبادلان

الحوار عن مشاكل الأطفال في القرية وكيفية إيجاد حلول لكل معاناتهم, كنت استشعر من نبرة صوتك مدى الخوف عليهم والاهتمام بهم كما لو كانوا أبناءك, ورغم أنّي كُنت طفلاً ريفياً يتيماً كما يطلقون عليّ, فإن والدتي الغالية لم تمكن قهر اليتم من التسرب داخلي والإستيطان داخل أرضي..

تلك الأم يمكن أن يُقال عنها بلغة هذه الأيام - superwoman -.
نعم, هي -superwoman- بمعنى الكلمة! فأمّا إن تحدثت عنها؛ فسأسطر من الكتب دواوين ومراجع ومعلقات.

وبالرغم من القدر البسيط الذي تلقته من التعليم, فهي تعي كل أمور الحياة, تناطح بإرادتها عنان السماء؛ فهي امرأة بقلب وعقل رجل. لقد أدركت منذ وفاة والدي مقدار المسئولية التي تقع على كاهلها, ولكنّها صامدة كالجبال لا يثنيها عن هدفها كائناً من كان؛ فقد كانت أمي أخت لإخوة كثر, لأب وأم بسطاء الحال, أمّا أبي فقد كان بلا إخوة وكان متوسط الحال إلى حدٍ ما؛ كان يمتلك منزل ريفي بسيط وقطعة أرض صغيرة , كانت شموسنا وأقمارنا متشابهة, عمل في الصباح وفي المساء, بالطبع لا تخلو تلك الأوقات من زيارة بعض السيدات المتطفلات اللائي يأتين ليثقلن العبأ أكثر وأكثر, كانت أحاديثهم تافهة خرقاء, إطارها النصيحة وبداخلها الألم.

كنَّ يتحدثن عن إلقاء هذا العبء على رجلٍ أخر, وألّا تفني حياتها المقبلة في هذا العمل المتواصل, ولكنّها كانت تستمع لكلماتهم بآذانٍ صماء, فهي تعي تماماً ما سوف تقوم به, وقد أدركتُ ذلك من خلال حوارها مع إحدى خالاتي..

-لا يا هناء! أنا مش ممكن أجيب لابني راجل غريب يتحكم فيه وفيّا, وأنا ناقصني إيد ولا رجل؟! أنا أقدر أزرع أرضي كمان لوحدي, ابني هو راجلي, هو جوزي, هو ماضيّا وهو مستقبلي!

كانت أمي تخاطب خالتي بمنتهى الحزم والقوة.
لا أنسى تلك النظرة الصامدة من عينيها السوداوين, كانت تتحدى بها كل الظروف وكل اليتم, كانت لا تعلم أن ذلك الرجل ذو العشر أعوام يقف متشرنقاً بدمعه, كلماتها سياطٌ تجلده..
أنا راجلها؟ ماضيها ومستقبلها؟! بس أنا أضعف من كده بكتير يا أمي.

وإذ بوجه أمي يحدق في مباشرةً.
ترائى لنفسي منكِ يا حبيبتي أن تذيبي كل خوفي داخل حضنك الأبدي..
أن تلتقطيني من خندق أحزاني وتحيكي لجسدي رداء العطف, لكنّي وجدتك تنهرينني بعينيك, تخلعين عني ثوب الطفل فأرتدي فجأة ثوب الرجل..

-أنا عايزة أعرف أنت بتعيط ليه, هو في راجل بيعيط!؟

ملقيةً بدمعاتي خارج وجهي..
-لازم تعرف, محدش هيساعدنا هنا, لازم تكون راجل وتعرف تكون راجل, تذاكر وتبقى حاجة كبيرة, تكون أد تضحيتي, فاهم؟ مش عايزة أشوفك بتعيط تاني!
وخرجت يا بدر النساء في ذاك اليوم معلنةً موت الأنثى بداخلك مستترة بالسواد حتى هذا اليوم.

كم أود أن أُلق مثل هذه الأنثى في يومٍ من الأيام, تلك المرأة التي تغزل من الوفاء سراويل, وأن تشيد من العزيمة قلاع.

وقد يكون تقارب ملامح منى مع أمي في الشخصية هو أول ما جذبني إليها, لكن بعد ذلك أصبح كل كياني يهتز بمجرد دوي اسمها أو بمجرد لمح طيفها.

كانت رحلة الباص من أمتع الرحلات في حياتي, كنتِ يا ناظري معتادةً على مشهد الأشجار, وتعانق الأزهار, وتسابق الفراشات بين الأغصان, وتقبيل أشعة الشمس للأوراق, وهمس العصافير للأطفال الصغار.

ولكنّي أراكِ اليوم مذهولة الأحداق, متسابقة النظرات, ترين كل شيء كما لو كانت مرتك الأولى.

ومازلت أُطلق لعيناي العنان لكي تتنقل من زجاج الباص في ذلك اللون الأخضر المبعثر في كل مكان فتُؤسَر من حلاوة المنظر.
وعلى الجانب الأخر تتمايل سنابل القمح متعانقة مع الضوء الخافت برومانسية منقطعة المثيل مُعلنين عن قصة حبهم الخالدة..

وإذ برحلتي المميزة تلك توشك على إسدال الستار معلنة بدء رحلة أخرى؛ فقد أخذنا التجول وسط بيوت يكسوها الفقر, تعتريها الحاجة, تمد أناملها إلينا لكي نلتقطها من حياة يخلوها حياة, تُحدق في اتجاهنا بأعين متوسلةً الدمع بأن نرفق, وندرك بوجود كائناتٍ أخرى تشاركهم الهواء على هذا الكوكب الأرضي.

كانت بيوتاً أشبه بالعلب الكرتونية, سقفها السماء, وجدرانها الجوع..
ودلفنا إلى إحدى المباني, يطلقون عليها مدرسة, كانت مكتظةً بالعديد من الصغار, ملامحهم مُعتادة بالنسبة لي, يرتدون أبعد ما يمكن أن يقال عنه ملابس.

وبدأت التودد إلى أحد الصغار, ما زلت أتساءل لم اخترت ذلك الصغير, هل رأيت في قسمات وجهه قسماتي؟ ووجدتني أسأله عن اسمه وعمره..

-اسمك إيه يا حبيبي؟
-أنا اسمي أمين.

-وعندك كام سنة يا أمين؟
-ستي بتقولي إن أنا عندي ٨ سنين.
-هو أنتَ عايش مع جدتك؟
-أيوة مع ستي أم أبويا. أصل أبويا مات من زمان وأمي مش عارف.. يمكن ماتت هي كمان.

آه يا صغيري! أشعر بالحنين الذي يتصبب من وجهك عند ذِكر أمك, أرى عيناه تفتش عنها في كل مكان.
-ما هي جدتك أكنّها أمك بالضبط.
-آه بس هي دايماً عيانة, وعنيها دايماً وجعاها, وأنا عشان كده لازم أصحى كل يوم من بدري, أساعد الشيخ جلال في تنظيف الكتاب؛ عشان أجيب لها القطرة وكمان العيش.

وإذا بجسدي الضخم يتقزم أمام رجولته.!
تثب عزيمته فوق كاهلي فتطرحني أرضاً؛ فوجدتني ألتقط يداه أتحسس فيهما معالم الرجولة؛ فيسأله لساني سؤالاً آخر..

-وأنت عايز تتعلم؟
-نفسي أتعلم أوي, أعرف اقرأ وأكتُب, وأروح لمدرسة زي اللي إحنا فيها, أنا أول مرة ادخلها, كنت فرحان لما قالوا لي إني هاجي هنا. العيال اللي بيجوا الكتاب بيقولوا إنهم بيقروا ويكتبوا, وكمان أوقات بيلعبوا كورة.. ياما حلمت إني بهرب من كتاب الشيخ جلال وإني بأجي ألعب معاهم, بس كنت خايف أوي, لأحسن ستي تعرف وتضربني.

وإذ بضحكاتٍ عالية ترتمي إلى أُذناي تُكبل كلماتي من أن تواصل حديثها مع أمين؛ فمنى كانت تضحك مع زميل آخر وسط مجموعة من الأطفال, لم أستطع

أن أتمالك نفسي..
كانت مشاعر الغيرة والغضب تقودني في اتجاهها, أنا ذلك الأخرق المعصوب العينين وبدأت كل الوساوس تجتاح مُخيلتي, تحتل صدري, تُرسل صغارها إليّ, حتى كدتُ أن أُصاب بالجنون.

كيف أمسى الفرحُ حزناً؟
واندثرت الشمس بأشعتها البرتقالية في أحضان الغيوم معلنةً رحيل الدفء للأبد..
اندفعت في إتجاههما بخطواتٍ هاذية حذاؤها الغيرة العمياء, وإذ بصياحي يصوّب طلقاته إلى هذه الضحكات فيخرسها للأبد.

-أنا مش عارف أنا جي هنا ليه؟
ياريت حد يقول لي! هو أنا حالة زيهم؟
حد قال لكم إن أنا مش لاقي أكُل!؟ يمكن عايزين تساعدوني زيهم أو تعلموني من جديد!

كانت كلمات كالمشرط الحاد أخذت تجتز كل الأعناق التي تجابهها.
وإذ بالألم يسيل من كل إتجاه والأعين تنهال على جسدي, ترمقني, تذيبُني, تغرقني في بحر الخزي والخجل.
تلقي بنبال الاشمئزاز على شخصي القاطن في هذا الجسد, وها هو الجسد ذو العشرين عاماً يتحلل تدريجياً إلى جسد طفلٍ لم يتجاوز العامان.
يُبكي دميته المُحطّمة بآهات متلاحقة الأنفاس, لا يقوى أحد على إيقاف صرخاته.
حتى جاءت الدكتورة نهال مخاطبةً إياي بحدة وحزم..
-في إيه يا إبراهيم؟ صوتك عالي كده ليه؟ أنا بقول عليك من أكفأ طلابي علمياً وأحسنهم خلقاً. كده تخيب ظني فيك!؟

فانكمش الطفل داخل لعبته المكسورة تحيطه أسوار الخجل؛ حتى دنوتِ أنتِ بمطرقتك, وهشمتي كل الأسوار الملتفة حوله؛ فغدا حراً طليقاً..

-لا طبعاً, يا دكتورة, إبراهيم ميقصدش أي حاجة من اللي قالها. هو بس فهم كلام قلناه غلط, وإحنا هنوضح له الصورة دلوقتي.
كلماتٌ بسيطةٌ رقيقةٌ أشبه بقطعة الإسفنجة التي أخذت تمتص كل أطياف الخزي الملتفة حولي.

ولكن أين أنتَ؟
أين أنتَ يا صغيري؟
أين أنتَ يا أمين؟
لا تقل أني قد أضعتك..
أضعتك بأنانيتي المفرطة!
آهٍ وآهٍ من طعنات اللسان!
فجرحاه كثرٌ في وادي النسيان
يتساقطون واحداً تلو الأخر
ولا عزاء لكَ أيها الإنسان
قتلتك كلمةٌ بلا استئذان
اندفعت هاربةً من اللجام

*****

- بقايا أمل -

صوت طرقاتٍ رقيقة توقظني من أحلام صحوتي وذكرياتي التي تقيّدني بهذا العالم؛ فخطوت خطواتٍ عرجاء نحو الباب لأجد فتاةً في مقتبل العمر, وفركتُ بعيناي بقوة سائلاً إيّاها:

-أنتِ مين؟
-أنا أمل يا عمو, بنت الأستاذة أحلام, جارتكم اللي في أول الشارع.

كم أنت يا أملي القادم تشبهينها, كانت ملامحك أشبه بصك العتق من أسر العبودية!
تشيرين بإصبعك أن أنتقل إلى بوابة الحرية.
فكم أنتِ من هبة! وكم هبة منك!
ولكن هبة تصغركِ بخمسة أو ستة أعوام. نفس القسمات الشرقية والروح البريئة. أحدق فيكِ حتى ظننت أنكِ قد خشيتِ مني.
وإذ بكلماتكِ تتلعثم تباعاً..

-أصل يا عمو, تيتا بدرية بتقولك الأكل جاهز.
وفررت هاربةً من أمامي, تقفزين فوق خوفك؛ فبدأت أُناديكِ صارخاً بداخلي..
انتظري صغيرتي
فأنتِ بضعٌ من ابنتي
نظرتها..

سمرتها..
وابتسامتها
أعدتيني إليها
وأخذتيني منها
ابنتي عودي
فبكِ انبثاقُ شروقي

لا تركضي يا أمل؛ فأنا لا أقوى أن أُؤذيكِ, فهل يمكنني أن أبكي وجه هبتي مرتين؟ أن أُعيد الدمع إلى مُقلتيها؛ فتغرقني سحبي ببكاها.

*****

كانت ذكرى عيد ميلادها السابع تدنو بإتجاهي, كنتِ ترقدين مستلقيةً على سريرك, يترقرق الدمع مُقَبِلاً وجنتاكِ يمنحهما لمسة الحنان التي بخلت عليهما بها.

هل تُراكِ قد محوتي لي يا هبتي زلتي؟ أم ما زالت ملاءتك الحريرية معطَّرة بقطرات دمعك؟
كم كانت حبيبات لؤلؤكِ متدفقة, صامتة, ومتألمة..
لم أتمكن في ذلك اليوم من إيقافها؛ فقد أضحيت مكتوف اليدين.
مازالت كلماتك تُكبل آذاني بأشواكٍ من الصبار؛ فتنزف حسرةً و ألماً!

-بابا, والله هزعل منك أوي, فاكر السنة اللي فاتت؟ مجتش عيد ميلادي, كُنت مسافر في الشغل, أنا كده هكره الشغل يا بابا, والله يا بابا مش هطفي السنة دي الشمع من غيرك ولا هاكل من التورتة.
-لا يا حبيبتي, أنا جاي طبعاً, هو أنا أقدر أتأخر على عيد ميلاد حبيبة قلب بابا؟ وكمان الهدية الحلوة دي مين اللي هياخدها؟

كُنت أكذب يا صغيرتي, أتلو الأكاذيب الواحدة تلو الأُخرى؛ حتى لا أخسرك, ولكنّي الآن قد خسرتك.
وهل لي بعقارب الساعة؛ فأُعيدها للوراء؟
أقتنص من الأيام فرصة؛ فأحقق لكِ كل ما تتمنيه, أن أعدو معكِ في رحلةٍ خاصة, نركض ونمرح, ثم ألعب معكِ لعبتك المفضلة؛ فأختبئ خلف إحدى الأشجار, تركضين وتركضين, أكاد أسمع صوت ضحكاتك - تسمح لدمعاتي أن تغفو قليلاً - فتجديني أمامك؛ فأضمك بين ضلوعي, أقتنص من الحياة ضمّة أخيرة لعلي أذهب معك إلى عالمك الجديد.
وها هو صوتك العذب يزلزل حواسي أكثر وأكثر..

-عشان خاطري يا بابا, عايزة أعرف إيه هي الهدية! وحياة حبيبتك هبة يا بابا, قول لي إيه هي الهدية!
-أُمّال تبقى مفاجأة إزاي؟

وإذ بنبرات صوتها تتراجع معلنةً الاستسلام..
-طيب, ماما عايزة تكلمك.
-أيوة يا حبيبتي, عملتي إيه في ترتيبات عيد الميلاد؟
-متقلقش يا حبيبي, أنا جهزت كل حاجة, بس أوعى يا إبراهيم متجيش! هبة هتزعل أوي, دي عازمة كل أصحابها عشان عارفة إنك السنة دي مش مسافر في شغل برة.
-لا طبعاً, يا منى, أنا جاي. هو أنا أقدر مجيش عيد ميلاد هبة حبيبتي؟ بس يمكن اتأخر شوية, الوفد الإيطالي هيوصل المطار الساعة خمسة, في إجتماع صغير الساعة ستة. كل شيء محسوب, متخافيش, إن شاء الله هكون عندكم الساعة ثمانية عشان أطفي الشمع.
-إبراهيم, أوعى تتأخر!
-متقلقيش يا حبيبتي.

كاذبٌ أنا.
ولكنّي يا حياتي أقسم لكِ أنني حاولت.
حاولت أن أحضر في الموعد المحدد..
ولكنّي فشلت!

أخذت أعدو في تمام الساعة ,١١ متوسلاً الدقائق أن تتمهل قليلاً, متخيلاً عقارب الساعة تتهكم عليّ؛ فأنقض عليها في الثواني الأخيرة, لعلّي أفوز بلحظة دفء معكم!
ولكنّي فشلت!

فقد وصلت إلى المنزل في تمام الساعة ,١٢ كان الظلام في شرف استقبالي, والبالونات تحدق في معاتبةً, وها هو قالب الشوكولاتة يبتعد رافضاً أن أتناوله, أعلم أنك قد صنعتيه من أجلي أنا؛ فأنا أعشقه من يديكِ فقط.

ولكن أين أنتِ يا مُنايا؟ أعلم أني سأجدك تنتظريني كعادتك ولكن كم أخشى من هذا اللقاء! فهأنا أراكِ مطأطأة, متجهمة الوجه, اكتفيتي بجملة واحدة..

-أنا سيبالَك قالب الشوكلاتة اللي أنت بتحبه على الترابيزة.
تبتعدين بخطواتك كي لا تتلاق مع خطواتي..
ولكن هل أسمح لنفسي ألّا تعتذر لكِ؟
فناديتك بكل أسمائك المحببة إلى قلبكِ أن تنهي عذاباتي..

فليغادرني قمري
وتغيب شمسي
وتقبلي كل إعتذاراتي
فلتسقط أسلحتي

وتلفظني أرضي
وتقبلي كل إعتذاراتي
فلأكون كائناً منسياً
يتوه في البرية
وتقبلي كل إعتذاراتي

*****

أمل, وأنتِ كل الأمل, بأن يرتوي جسدي بقطراتٍ من ينبوع الحياة؛ فتدب فيه الروح مرة أخرى؛ فتدنو الإبتسامة من نافذتي.

وإذ بقدماي تشداني نحو الأسفل, ليس للجوع, فليس لي موعدٌ معه؛ فالطعام هو آخر وسائلي لكي أبقى مستيقظاً؛ فأتمكن من تصفح صوركم بداخلي؛ فيتمكن قلبي من متابعة إصدار نبضاته..

وها هو وجه أمي ينتظرني بإبتسامته المعهودة, وصبره اللا محدود..

-يلا يا حبيبي! الأكل جاهز.
-بس فين يا أمي, أمل؟

فإذا بأمي تطوقني بنظرةِ استغرابٍ من عينيها, متفحصةً وجه ابنها الوحيد.
-قصدك أمل البنت الصغيرة بنت جارتنا؟
-أيوة يا أمي, صدقي لمّا شفتها حسيت إنّي شفت بنتي هبة, شبهها أوي يا أمي!

فشعرت بأمي تتوارى خلف جبل الحزن, تنهر دموعها ألّا تنهمر, رافضةً أن تعيدني مجدداً إلى دوامة بلا بداية أو نهاية, ولكنك لا تعلمين يا غاليتي أنني أقف مصاباً بالرصاص في مركزها..

-آه يا ابني شبهها أوي, بس هي مشيت من شوية, ويلّا تعالى علشان تفتح نفسي على الأكل.

يالروعتكِ يا أُماه! أُيقن بأنّك تؤدين دور المرأة القوية في هذه اللحظات الثقيلة على قلبك.
وها أنت تتقنين دورك بحرفيةٍ منقطعة النظير, ولكن هل تعلمين يا غاليتي بأنّي ألمح تلك الدمعة المحتجزة بين أهدابك والتي تقسمين عليها ألّا تسقط؛ فقد أُزيح عنها الستار, أُبادلها النظرات ونرتحل سويّاً نحو الذكريات.

وجلست معكِ, حاولت أنا أيضاً أن أُؤدي مسرحية الجوع, وأكون أنا بطلها من أجل إرضائك, ولكن يأبى الجوع أن يطرق على باب معدتي, بالرغم من تحضيرك لكافة أنواع الطعام المحبب إلى قلبي, تناوليني بيديك بضعاً منه؛ فترفض شفتاي تناوله؛ حتى جاء كوب عصير البرتقال, وأمرني بحمله!

*****

قد كان يوماً طويلاً في الكلية, شديد الحرارة, وكانت الشمس قابعةً في كبد السماء معلنةً تحديها وسطوة أشعتها الحارقة, متفاخرةً بقسوتها, وبدا على منى معالم التعب الشديد, ولكن بالرغم من كل ذاك المرض المحتل لوجهها البريء, فهي لم تستطع أن تمكث في المنزل؛ فيأبى المرض أن ينهزم في هذه المعرك؛ فتسقطين مغشياً عليكِ في المحاضرة, ويسقط معكِ قلبي وكل جوارحي..

أَفيقي منايا وحبيبتي
فلا تكوني سبباً لدمعي ولوعتي
فهل تُراني واهماً
إذا طلبت من الأرض مطلباً
بأن تُعيد لي حبيبتي

فتكون إليها وجهتي

وإذ بي فجأةً أتذكّر علبة عصير البرتقال التي أعطاها لي صديقي أنور في صباح اليوم الباكر؛ فتوجهت بسرعة لإحدى صديقاتها معطياً إياها علبة عصير البرتقال, وقد تناولَت القليل منه.. فكم أحببت عصير البرتقال!

*****

وعدت إلى حاضري بصوت أمي الغالية..
-ما تاكل يا إبراهيم, الأكل برد. أنا عمّالة أبص عليك بقالي ربع ساعة وأنتَ ولا هنا يا ابني.
-أنا آسف أوي يا أمي, بس حقيقي مش قادر آكُل, أنا بس عطشان وهشرب عصير البرتقال.
ودنوت منها مقبلاً وجنتيها, أسألها أن تدعو لي بالسكينة..

*****

- غاليتي -

إنها السنة الثالثة من حياتي الجامعية, كان الليل والنهار مرادفان لكلمةٍ واحدةٍ: جدٌ, ثم جدٌ.. لا نهائي.

كان نصب عيناي هدفٌ أراه صعب المنال ولكن لابد من المحاولة, وهو أن تجني أمي ثمار عمرها أن تراني شخصيةً مرموقةً ودكتور في الجامعة, ولكن كان هناك هدف آخر لا يجرؤ لساني إفصاحه, يُحكم القلب الإغلاق عليه؛ حتى لا يراه أحد, ويُلقي بمفتاحه في سردابٍ أرضي, يوصد بابه مِلكان من ملوك الجان, لا يقوى أحدٌ على كسره إلّا أنتِ.. وأنتِ فقط.
ولذلك فهما ينتظرانِك بشغف لكي تستردي المفتاح؛ فيرقدان في سباتٍ عميقٍ بعد طول عناء..

فهل تراني سأراك يوماً حاملةً هذا المفتاح؟
وإلى أن يأتي ذاك اليوم, فلن يجد النوم لعيني سبيلاً, يأتي فأسأله الرحيلَ.
وإذا بالأيام تتدافع بسرعة شلال مائي منحدر من فوق قمة جبلٍ صخريّ تتبارى مياهه مع صخوره, فأيّهما يرقد بسلامٍ على سطح المنحنى الأرضيّ؟

وأخذ الحلم يدنو مع تحقيق بشائره الأولى..
فأكون أنا الأول على الدفعة بامتياز, كانت السعادة تحلق في سمائي وأُغدق بالإبتسامة على كل من حولي, ورأيتكِ..
وهل هناك يومٌ أروع من هذاللبوح بسر قلبي؟ ولكن مجدداً يصمت صوتي

ممهداً لكلماتِك أن تستقر في صدري..

-مبروك يا إبراهيم, أنت تستاهل كل خير, وعقبال السنة الجاية تكون الأول كمان.
-ياه يا منى! هتصدقي إن كلامك ده هيقوّيني وميخليش حاجة تقف قصادي إن شاء الله.
فنظرت لي نظرة خاصة, معلنةً إزاحة الستار عن سر قلبي..
-ماشي يا سيدي, وادي كمان ألف ألف مبروك عشان تقوّيك أكتر وأكتر!
ستظل كلماتك يا منيايا مطبوعةً داخل آذاني, تأبى أن تُصغي إلى غيرهنّ, كلماتٌ تُمدني بطاقة فولاذية كي أواصل في طريقي هذا فأكون جديراً بكِ.

وجاء موعد الإجازة الصيفية, ارتحلت إليكِ يا والدتي الغالية محمّلاً بكافة أنواع الثمار بعد سنواتٍ وسنواتٍ من العرق المرتوى بالدمع, أراكِ بانتظاري متهللة الوجه, متناغمة ومتراقصة النبرات, كانت عيناكِ تتسابق مع يداكِ, ويداكِ تتخطى قدماكِ, وإذ بحضنكِ الدافيء هو الفائز في هذا اللقاء.

-ياه يا إبراهيم! لو تعلم أنا فرحانة قد إيه! أنا حاسة إن ربنا عوّض صبري خير يا ابني, بس لازم تعرف إن فرحتي مش هتكمل إلّا لما أشوف ولادك.

وقد كان حديث أمي الموّجه إلى شخصي في تلك اللحظات أشبه بالسقوط من أعلى ناطحة سحاب؛ فتتناثر أشلائي بلا عنوان؛ فأُحاول أن أُلملم بعضاً من جزائها؛ فأهوي ثانيةً مسلوب الوجدان.

نظرت إلى أمي نظرة المزبهل, هل تُراها أزاحت الستار عن سر فؤادي؟ هل غفا ملكا الجان فأضاعا المفتاح؟!
ولكن لابد من المراوغة!

-أولاد إيه بس؟ مش لمّا أكمل آخر سنة, وأعمل الماجستير, ويمكن كمان الدُكتُوراه!
-طيب, بس خطوبة. البنت خطّابها كتير وألف من يتمناها.
وإذا بماسٍ كهرابي يتحسس أطرافي تدريجياً, فيصيب جسدي بسكتةٍ دماغية!

-أي بنت يا أمي؟
-بنت خالك سليم, أميرة يا إبراهيم, أنتَ ناسيها ولا إيه؟ البنت زي القمر, مخلَّصة كمان ثانوية عامة, ولو عاوزها تكمّل معهد أو كليّة هكلم خالك تكمّل عشان تليق بيك.

فأخذ سائل الغضب يتمدد في جسدي, يذيبني, يأسرني, يتملكني؛ فأصبح أنا التابع له وهو السيد, يشير ببنانه وأنا أُصغي؛ فأنتفض كالمحموم, أبِثُّ جمري في كل مكان!

-سليم مين؟ وأميرة مين؟! أنا مش هتجوز من هنا أصلاً! أنا بحب واحدة زميلتي, ولو هتجوز مش هتجوز غيرها!
وغدا سجل الأسرار كتاباً مقروءاً, وجبل المستور الذي شيدته لنفسي يسقط مغشيّاً عليه من مجرد فكرة أن أرتبط بغيرها هي.
نظرت لي أمي نظرةً تستتر بكل المعاني, نظرة تحمل بداخلها مئات الألوف من الأسئلة.. أسئلة تصرخ في وجهي قائلةً:

من أنت؟ من أنت؟
أفلذةُ كبدي؟ حبا ببيتي وطعم من يدي؟
أم غريبٌ رأته عيني؟ جاء ليقتلع زرعي..

فاقتربت منها محاولاً أن أعقِد معاهدة الصلح مع ناظريها مناجياً إياها بدمعي.

-أنا آسف يا أمي, أنا عارف إن مفيش أسرار بينّا, بس أنا كُنت مكسوف من نفسي أوي.. أنتِ قاعدة تزرعي و تتعبي عشان تربيني وتعلميني, وأنا في الأخر بحب. سامحيني يا أغلى وأحب الناس..

الأم..

نفسٌ خُلقت من أجل الحب؛ فهي تضخ حنانها وعمرها بطواعيةٍ بداخل أوردة أبنائها.

تضحك مع ضحكاتهم..

تبكي مع دمعاتهم..

تقفز فرحاً مع نجاحاتِهم

يحرمها النوم اللقاء مع مرضهم

تتألم فتسقط مع أوجاعهم

فهي لهم و تحيا بهم

وتتنفس الهواء المقترِن بسمائهم.

أهواك أمي

وكيف لا؟

فمعكِ طفولتي

وورد عمري

انكسارة ظهري

وسقوط دمعي

فتطفئي ألمي

وتوقدي فرحي

تؤنسين روحي

وتثبطين حزني

تضمّدين جرحي

وتنيرين ليلي

وتطاردين شبحي

وتهللين لضحكي
أهواكِ أمي
وكيف لا؟

ما زالت الكلمات تقف خرساء عاجزة في وصف هذا الحب الإلهي المولود بالفطرة مع كونها أنثى, حتى تلك المرأة التي لم ترزق بأبناء يولد بداخلها مشاعر الأمومة؛ فهي مشاعرٌ منبعها من السماء. تحب, تسامح, تهب, تخاف, تبكي, تدعو من أجله, وهأنتِ يا غاليتي تخطّين بقلبك ورقة أمومتك, بعينين مليئة بالدموع..
-ومين دي بقى يا سيدي اللي خلت بيننا أسرار؟

فإذ بي أقدم وثيقة اعتراف مطرزة بكل أنواع الإعتذارات, عن كل ما مضى من أحاسيس ومشاعر, تتحرر الكلمات من أحرفها متفرقة هنا وهناك, تنطلق من قضبان لساني؛ فينهك قلبي من دمع اللحظات, فتخترقين أنتِ كل هذا, حاملةً حب قلبكِ, معلنةً تسامحكِ؛ فتقضين على كل الأوجاع.

-أنا ميهمنيش غير سعادتك يا حبيبي, وإنك تعيش مع البنت اللي إخترها قلبك, وإن شاء الله تكون تستاهل حبك ده يا ابني, بس لازم بردُه أشوفها وتعجبني.

دلفتِ إلى غرفتك يا غاليتي, مطويةٌ صفحة فتاتكِ التي اختارتها أيامك.

كم أحبكِ أمي!
فليزول كل الحب ويبقى حبُك أنتِ!
كم أحبكِ أمي!
فليرحل كل البشر وتبقين أنتِ!
كم أحبكِ أمي!

فلتختفي كل الأقنعة ويظل وجهك أنتِ!

*****

.

- وقد جاء أنور -

طرقاتٌ, ثم طرقاتٌ لا تنتهي أبداً.. لم لا يتركوني في عالمي هذا؛ فقد اكتفيت من كل البشر ومن عالمهم ذاك..
وإذ بالباب يفتح على مصرعيه, وأرى وجه صديق عمري ورفيق دربي أنور بإبتسامته المعهودة وروحه المرحة.

-في إيه يا أستاذ؟! خلاص هجرتنا, وهجرت التكنولوجيا؟ لا موبايل ولا تليفون أرضي! ناقص تفصل الكهربا عن كل اللي في البيت!

أعي يا صديقي العزيز أنك تبذل قصارى جهدك لكت ترسم على وجهي الإبتسامة.. ولكن هل تعلم؟ لقد ماتت كل إبتساماتي! بعثت لي برقية وداع, فلا تحاول يا صديقي؛ فلن تجدي كل محاولاتك. عُد إلى عملك وحياتك ..
لا تهدر وقتك هباءاً, لقد اختفيتُ من عالمكم, عصفت بي الريح فاقتلعتني من أرضي وألحقَتني بعالمٍ أخر مُبهم الأركان, نهاره أشبه بليله, وصيفه أشبه بشتائه, كلٌ سواء, دقائقه ساعات, وساعاته أيام, ظله طريقٌ مشتعل الأغصان, ومطره جمرٌ و نيران! كلما بحثت عن بوابة الخروج أعود إلى نقطة الصفر, فأدخل وأخرج, وأدخل وأخرج, حتى أعود إلى نقطة اللا حياة.

فيطيل أنور النظر بإتجاهي يهز رأسي بقوة..
-إيه يا ابني أنتَ معايا ولا إنت فين؟ أنا عمّال أبصلك بقالي ساعة إنك تعبرني وترد عليّ ولا كأنّي هنا! هو إنت شايفني هوا ولا إيه؟!

ونظرتُ إليك مكتفياً بكلماتٍ قليلةٍ محاولاً إنهاء هذا اللقاء
-عاوز إيه يا أنور؟
-هكون عاوز إيه يعني؟ جاي أشوف ست الحسن والجمال؟ ده حتى لا شعر ولا عنين ولا حاجة خالص.

وما زلت تصر يا أنور على إقحامي في عالمك, ولكن لماذا تأبى أن تدرك؟ أنا لست كالسابق.
أنا لست إبراهيم رفيق دربك..
أنا كائنٌ يتنفس ولكن برئة إنسانٍ آلي!
أتحدث ولكن بلسان مخلوقٍ حجري!
أرى وأسمع ولكن بأعضاء مسخٍ أُسطوري!
يرى الأشجار والأنهار, ولكن لا يستشعر ماهية جمالهم!
يستمع إلى الأصوات والنغمات ولا يدرك مغزى حروفهم..

-وبعدين هو حضرتك نسيت إنك رئيس مجلس إدارة لشركة كبيرة؟ و إن أنا بقالي ٦ شهور شايل الشغل كله لوحدي؟ وبعدين وحشتني أوي يا أخي! هو أنا موحشتكش؟ عايزك بس جنبي, ومتعملش أي حاجة يا إبراهيم.

فارتميت في أحضانه, ألقي عليه كل دموعي؛ لعلّي أنتهي منها, وما زلت أبكي وأبكي, لا أعلم متى سينتهي كل هذا البكاء!
هل سنستطيع إيقافه؟
أم سنحتاج لطوقِ نجاةٍ؛ لننجو سويّاً من الغرق؟

*****

- وكان المستحيل -

ما زلت أنا هذا الشاب الريفي الطامح بأن يلامس قطع السحاب المتجاورات في السماء, أن يغزل من ألوان قوس قزح حُلة تُبهجكِ, أن يعدو فوق أشعة الشمس المتراقصة علي صفحة النيل الذهبيّ؛ فيلوح لك.

وما زال القلب يوقن بأنني سأبدد كل المستحيلات؛ فقد كُنتُ في سباقٍ مع كل شيء من أجلكِ أنتِ.

وأُعلنت نتيجة السنة النهائية؛ فإذا بدقات القلب تتدافع كأنها في سباقٍ ماراثوني, تقفزن فوق بعضهن لاقتناص الفوز.
وكم يعيش المرء ثوانٍ في حياته تشبه في طولها الأعوام!
وها هي تأتي الآن ملوّحةً بأعلام النصر, ملوِنةً دمع العين بلون الفرح.

وكنت أنا هو الأول على الدفعة بتقدير إمتياز, الدكتور إبراهيم عبدالحميد, ومع غمرة فرحتي الأسطورية, ما زالت تتخبط بداخلي أحلامٌ أخرى..
كم كنتُ أخشى أن أدنو من ذلك الحلم! أن يتحول إلى كائنٍ حي, ينبض, يبتسم, يرقص أو.... أن يدفن ببقايا أشلائه المتناثرة تحت جوف الأرض, أو أن يتم مضغه تحت أنياب سمكة القرش الحادة , أو أن تذيبه الأبخرة الملتهبة الصاعدة من فوهة البركان!

ولكن ,,

لم يعد مفر من المحاولة, وكانت اللحظة..
لحظة بكل العمر, بكل الخوف, بكل الأمل, بكل الاضطراب..
لحظة تمسك بيدها عصا سحرية تدير بها عقارب الساعة يميناً ويساراً, شمالاً وجنوباً؛ فيغدو الليلُ نهاراً, والخريفُ ربيعاً.
عصا تُنقل الجرحي ببساطها السحري, إلى وطنٍ أرضه عقارٌ لكل الجرحى.

كان كل الزملاء يهنئون بعضهم بظهور النتيجة, وها هي دقائق السعادة تمتزج بدموع الفراق؛ فكلٌ يعي جيداً بأنه سوف يخطو في دربه راجياً تحقيق آماله.
ورأيتها هناك, كانت تقف متوسطةً مجموعة من الأُخريات..
فكيف لي أن أرى غيركِ وللساني يَلفُظ بغير اسمك؛ فليس لي ظلٌ غير ظلك! وليس لي وطنٌ غير قلبك!

وناديتكِ يا فتاتي, وبدأت كلماتي متلعثمة, ولكنّي وجدت لساني يطرق على تلك الكلمات المتلعثمة, ويرتدي زي الشاعر المُحب؛ فيصول ويجول, وينشد من أبيات الشعر ما يرقق القلوب, وإذ بها تطلب مني أن أتوقف؛ فيرتجف قلبي بروحٍ تنتحب على بداية الرحيل..

-إبراهيم, أنا طول عمري عايشة يتيمة, إن كُنت أنتَ يتيم الأب, فأنا يتيمة الأب و الأم, يتيمة المشاعر, يتيمة السؤال, يتيمة للمسة إيد, لنظرة حنّية, يمكن أنا طول الوقت ببان قوية, وببتسم على طول, بجري هنا وهناك, بس أنا بجري من حزني! يمكن بدور في وشوش الناس على وش أمي اللي عيزاها تضمّني, وعلى روح أبويا اللي خايف عليّا, هتصدق لو قولت ليك إنّي شفت فيك روح أبويا؟

وكنتُ أنا إبراهيم في هذه اللحظة الأسعد في العالم..

شكراً حبيبتي
شكراً دقات قلبي
شكراً سمائي
شكراً هوائي
أغدوتُ إنساناً يجتاز خطوط زمانه؟
يحوّل الدمعات للضحكات
والآهات للإبتسامات
فكيف ألقيت بكل مخاوفي في لحظات
أنبت برعم الفرح تتراقص مع النسمات
وإذا بضوء الشمس يلامس النجمات
وقلب الطفل يغدو قلب عازف متجول بالنغمات
شكراً حبيبتي..

*****

.

- الذكرى -

كانت مغادرة أنور لغرفتي آخر محاولة بشرية في هذا اليوم لربطي بعالمهم الحالي؛ فكل محاولات أمي تبوء بالفشل, وكم كانت تؤلمني نظراتها الحزينة ولمسات يديها المتألمة, فكنتُ أحاول يا غاليتي, ولكن قيود الأسر كانت أقوى من كل محاولاتى المستميتة..

-إبراهيم, قوم إلبس يا ابني وتعالى معايا عقيقة ابن الأستاذ علي, ربنا رزقه بعد سنين بابنه محمود, تعالى افرح معانا شوية يا حبيبي! سيب بقى الأُوضة اللي أنتَ حابس نفسك فيها ليل ونهار, ده أنا حاسة إنها زهقت منك!

-لا, يا أمي مش قادر. كمان أنا هضايقهم بوجودي, خلّي الناس تفرح, ويكونوا على راحتهم. بلاش, أروح وأعكنن عليهم؛ فيداروا ضحكتهم منّي. أرجوكِ سيبيني.

وذهبت يا حبيبتي, تحرقني دموعك المحبوسة داخل زنزانة قلبك, كم أود أن أُحررها! ولكن يداي مبتورة الأصابع.

وإذ باسْمِ محمود يقرع على أذني بنداءات متتالية يتخللها من بعيد صدى صوتٍ يأَن, يخنقه الدمع, وإذ بجنون عقلي يمزقني؛ فلا مفر من الإقتراب من ذلك الصوت.
ما الذي يريده منّي؟

وماذا يود أن يقول؟
فأقترب أكثر وأكثر؛ فأشعر بالضياع. أبحث عنّي ولا أجدني..
هل هو أنت؟
هل أراك من جديد؟
هل ما أراه حقيقي؟
أهوَ أنت؟ يا من كنتَ أخي وأبي, يا من كنتَ ولدي..
لِمَ تبكي يا أحمد؟

أنا هنا معكَ يا صغيري, فلتمد يدك إليّ؛ فأنا هنا بجانبك!
ولكن لِم تبتعد يا صغيري؟

فأخذت أركض وأركض؛ فتبتعد أكثر وأكثر؛ فأزداد إصراراً وقوة, و ها هو صوتي يصرخ عالياً؛ لعله يستمع إلى صوتي ويطمأن.
لا تبكي يا أحمد! أنا سوف آتي إليك؛ فأثبُّ لأعلى ولأسفل, متحولاً للاعب بهلوانيّ, أُسابق الريح وأخترق النيران.
وهأنا أقترب منكَ يا صغيري على وشك احتواءكَ؛ فإذ بعاصفةٍ هوجاء تبتلع كل من يقف أمامها, تلقي بذرات الرمل على عيني؛ فأسقطَ مغشيّ العينين؛ فأفيق؛ ولا أجدكَ.
أخذته منّي وفرّت..

وإذ بذرات الرمل تلك تتخللني تدريجياً كسائل يمسخ كل ما يقابله, يفتته؛ فأكون أنا ذلك الإنسان الأجوف داخلياً, يتحسس قلبه؛ فلا يجده؛ فيصرخ ويصرخ, متسائلاً: من أنا؟
لكنّه يكتشف فقدان صوته؛ فيسقط ويسقط..

*****

مضت أعوامٌ ثلاث على إرتباطي بفتاة أحلامي, ما زال ذاك اليوم يأسر مُخيّلتي بشمسه, بأزهاره البيضاء, بموسيقاه, بعطر سماه.
كنتُ أستنشق الورود متعطرة برائحة الفرحة, و أرى الأشجار تتمايل على موسيقى موزارت. لقد كان يومنا أنا وأنتِ.
كل الدنيا لنا أنا وأنتِ؛ فقد كانت الشمس تنير سماءنا أنا وأنتِ, والأرض تهتز فرحاً لنا أنا وأنتِ.
فهل أنا أكون أنا من غيركِ أنتِ؟

ثلاث أعوام يا حبيبتي! توج الله فيها سعادتنا بابنتنا هبة وابننا أحمد..
وبالرغم من انشغالي الدائم بالعمل؛ فقد كنتِ فراشتي الرقيقة التي لا تحاول أن تثنيني عن إكمال دراستي الجامعّية وإنشاء شركة خاصة بي مع زميل دراستي أنور, بمساعدة أمي الحبيبة..
كنتُ أُحيكُ الليل والنهار, أنسج منه ساعاتٍ إضافية من أجل إكمال عملي.

كم كانت تستحضرني لحظات! تأمرني أن أوقف كل ذاك العمل اللا نهائي, ولكن ما زال ذاك الشبح يرمقني من بعيد, فتارةٌ يقترب وتارةٌ يبتعد. أوقات يضحر؛ فيختفي قليلاً, ثم يعود ويبتسم.
كم كانت إبتسامته مقلقة! يود أن يلقي بظلّه عليّ؛ فأفر ثانيةً من العمل للعمل.

ووسط كل تلك الأوقات أرى وجهكِ المتبب عرقاً, يروي أرضك, تلفح الشمس الحارقة بشرتك السمراء؛ فتزيدها سُمرةً؛ فأستمد من سُمرتك القوة؛ فأدور في دائرتي الأبدية.

واليوم هو عيد زواجنا يا مُنايا! ركضت فرحاً إلى عشنا الدافيء حاملاً معي قطوفاً من الورد المتعطر بنسائم قلبي.

وها هو ملاكي ينتظرني, مطبوعاً على شفتيه إبتسامة, تُزخر الكون بالورود الجميلة, لو تعلمين أنكِ أنتِ أجملهنّ..

ويتغلغل إلى أنفي رائحة العطور, لو تعلمين يا دنياي أنكِ أنتِ أطيبهنّ عطراً.
وتصدر ابنتي هبة ضحكة طفولية تضفي على وجهها الملائكيّ شقاوةً ومرحاً,
وها هو ولدي أحمد يغط في نومه العميق بين أحضان أمه.

كنتُ أُحدق في هذه اللوحة كما يحدق داڤينشي في الموناليزا.
كم أود أن أُشبع عيناي من هذه اللوحة؛ فلا ترى عيني بعدها أي لوحات!

وأخذنا ننهل من السعادة, والسعادة تنهل منّا.
وإذ بحبيبة عمري تخطف قلبي لأول مرة بنبرة يخالطها الشجن..

-إبراهيم, أنتَ أكيد عارف أنا قد إيه بحبك. أنتَ أبويا وأمي وكل عيلتي, أنا عايشة عشانك أنتَ وهبة وأحمد.. بس مش عارفة أقولك إيه. أنا آسفة, أنا حاسة إني تعبت. تعبت أوي.. تعبت من الوحدة, بأسأل نفسي أوقات هشوفك امتى؟ عارفة إنّي هصحى مش هلاقيك جنبي. أنا عارفة إنّي مش مفروض أقولك كده, وعارفة أنك بتتعب أوي عشانا, بس لازم تعرف إن كل مسئولية البيت والولاد عليّا أنا. أنتَ حسيت إن أحمد كان سُخن من يومين؟ أكيد لا؛ لأنّك أصلاً بتشتغل ٤٨ ساعة في ٢٤ ساعة. هو دلوقتي خفّ الحمدلله بس كان نفسي تحس قد إيه أنا تعبت معاه. أرجوك تسامحني..

كلماتٌ مؤلمة كأشواك شجرة الصبّار, كلامٌ مغلّف بعطر الحب, ولكن عند الاقتراب منه يجرحك ويدميك.
وكيف لي يا حبيبتي أن أحيا وأنا أُشجيكِ؟
وكيف أتنفس الهواء وعطركِ ليس فيه؟

فلتسقط كل قلاع الرجال
لأتوه في أودية أيّامٍ وليالٍ
إلى أن تعلني الصفح؛ فأعود لك, لا مُحال..

-أنا يا منى معقول مش حاسس بيكِ؟ أنا كل ده بعمله عشانك أنتِ والولاد؛ عشان منخفش من بكرة, نقابله وإحنا أقوية, مش وإحنا ضايعين! عشان الفقر مياكلناش و يبلعنا جوّاه!

-لازم تعرف يا إبراهيم, إن كل يوم من غير ما نكون مع بعض ضاع من عمرنا. . هنعمل إيه بالفلوس وإحنا مش مع بعض؟

-لا, يا منى أوعي تقولي كدة, يعني إيه مش مع بعض, هو إحنا لينا إلّا بعض؟ أرجوكِ تسامحيني, أنا هحاول أكون جنبك أكتر من كده وأعوّضك عن كل اللي فات.

****

- المطر -

كانت أصوات اندفاع المطر تخترق أذاني, حتى كادت أن تحطم ذاك الشباك الزجاجي الذي أُطل منه على عالمي الغريب.

وإذ بتسابق قطرات المطر المندفعة بجنون نحو الأرض يخطف ناظري؛ فأجد قدماي تدفعني بقوة لكي ألحق بهم؛ فأسبح مع تلك القطرات لعلني أتطهر من بضع ذنوبي.

وتوجهت بقدماي إلى حيث لا أعلم, ولكن كل ما كنتُ أدركه أنني كنتُ في رحلة شديدة الخصوصية مع تلك القطرات البلورية.

وبدأت قدماي تنغمس في تلك الأرض الطينية, كنتُ أشعر بأنّي أولد من جديد؛ فقد كان جسدي يغتسل بالماء والطين معاً, وأخذت أذوب وأذوب حتى أشرفت أن أكون أنا وهما كتلة واحدة.

وخلال رحلتي الخاصة تلك اسرق إلى سمعي بكاءُ طفلٍ مع صوت امأة تحاول تهدئته.
حاولت في البداية الابتعاد, ولكن صوت بكائه جرفني بقوّةٍ إليه؛ فاقتربت أكثر من ذاك الصوت..

كم كانت كلماته قاسية, مؤلمة, حادّة كأنّها أنياب أسدٍ شديد الجوع يجول

في الغابات لساعاتٍ وساعات في يومٍ شديد الاحتدام, بحثاً عن فريسته؛ فيجدني أمامه؛ فيغرز أنيابه بداخل جسدي؛ فأصرخ وأصرخ كما يصرخ ذاك الصغير؛ فأمّا أنا كنتُ أئن ألماً, وهو كان يئن جوعاً وبرداً في تلك الليلة القارسة البرودة, وكانت أمّه الفقيرة تشتكي هماً إلى الله وتتوسل إليه أن يرزقها الطعام والغطاء, وبدون أن أشعر وجدت يداي تطرق على ذلك الباب الخشبيّ؛ فوجدت امرأة تكتسي من الفقر ثياباً وكان وجهها يقطر جوعاً وشحوباً وأطرافها ترتعش برداً وعراءً.
وإذ بها تخاطبني..
-أنتَ مين؟ وعايز إيه؟

فوجدتني أعجز عن الرد؛ فأنا لا أعلم من أنا, ولِمَ جئت إلى هذا المكان.
ماذا أقول لكِ؟ هل أنا إبراهيم رجل الأعمال والدكتور في الجامعة؟ أم أنا ذاك الرجل التعيس, فقير الإبتسامة, المحمّل بالماء والطين؟
ولِمَ جئت إلى هنا؟ فلست صاحب قراري, تركتني لقدماي تخطوان بي كيفما يترائى لهما؛ فلا تسأليني, وأسألي قدماي..
ونادى الصغير عليها مجدداً..

-أنا جعان أوي, مفيش عندك أي حاجة أكلها؟ أنا مأكلتش من امبارح..
فوجدتها توصد الباب في وجهي..
فهرولت مخاطباً نفسي -امبارح.. امبارح!-
كانت هذه الكلمة جمراً يتخلل بداخلي بلا استئذان, يحبو بداخلي؛ فيدلع النار بكل ما في..

وإذ بالكرات البلورية تمسي كراتٍ ناريّة تمطر شهباً على جسدي؛ فركضت مهرولاً منها.
يا إلهي! هذا الذي كنتُ أتجول معه منذ دقائقٍ عدة سائلاً إياه أن يتغلغلني فتمحى كل آثامي, أصبحت ألوذُ بالفرار منه.

كنت أنا ذاك اللص الآثم الذي يُطلق لقدميه العنان؛ لكي يتواري من الطلقات النارية المصوّبة في اتجاهه, لكنّي كُنت لصاً من نوعٍ خاص, يسرق من شبحه القاطن في جسد ذاك الصغير؛ فقد اختلس منه إحدى ممتلكاته.. -إمبارح!-, طلقةٌ رقدت في صدر الصغير, وعَدوتُ, وعًدوتُ حتى تواريت داخل غرفتي..

وإذ بنصف وجه, نصف جسد, نصف رجل, يحدق خارج ذلك الشبّاك الزجاجيّ, تتطاير أمامه نيازك اللهب في كل مكان, تلوّن سماءه بالجمر والنار؛ فأختبئ وأختبئ بجسد ما تبقى لي من رجل ممدداً على الأرض, معلناً الهزيمة..

أجل! أخشى أن أراك بهذا القرب, أن يلمسني رداؤك, أن تحدق فيّ هكذا, أن يقتلعني صوت ضحكاتك, أن ترقد بداخلي؛ فأمزقني..
يترائى لي ظلك في كل الطرقات؛ فأحبس جسدي داخل عملي؛ لعلّي أمحو آثار أقدامكَ من طرقاتي.

ولكنّي اليوم أراك ملء العين؛ فأعلنت أنا الهزيمة, رافعاً لكَ كل الرايات, مقدمّاً لك الاعترافات..
رأيتك اليوم يا شبحي ترقص في جسد طفل, وددت أن أسدل سيفي فأُبارزكَ؛ فأقتلك أو أقتل؛ فكلتا الحالتين راحة منك! ولكنني وجدتني أسقط هارباً, أجر خيبات الآمال باكيَ النفس.

متى ستنكسر سهام قوتك؟
ومتى ستخبو قوّة نارك؟
متى سأقتلع شمس نهارك؟
وأحطم عندها باب دارك
فأمزق في أثناءها أحرف كتابك
عندها ستُعلِن يوم إنتحارك

فتختفي عندها كل صفحاتك

آراك أحياناً تحوم حول فريستك كما يحوم الذئب حول القطيع؛ فإذا حلّ الليل تفترس تلك الضحيّة بلا هوادة أو رحمة, ثم تتجول وتتجول نحو فريسةٍ أُخرى؛ فضحاياك كُثُر, ما زالت صورة ذاك الصغير تمُزقني..

لا أشعر بجسدي, أين قدمي؟ أين رأسي؟
هل أنتَ وريدي, أم شرياني؟
هل أنتَ قلبي أم عقلي؟

وإذا بتلك الصفحة التي كنتُ أختبئ منها دائماً تقفز أمامي, تصارعني بقوّة؛ كي أتنقل ثانيةً بين طيّاتها؛ فألكمها بقبضتي اليمنى؛ فتردُ لي اللكمة بلكمتين؛ فأُحاول ثانيةً أن أسدد لها اللكمات, ولكنّها تقضي عليّ بالقاضية؛ فأتوسل إليها أن تغادرني, أن تشفق على حالي, أن ترأف بي, أن تكتفي بذلك؛ فتحدق بي شامتاً.. -سأظل صفحتك الأبديّة! فأنظر جزاء فعلتك!-

*****

- المواجهة -

كانت وقفة العيد, وكالمعتاد كنتُ أقضيها مع والدتي الغالية, أسافر أنا وأسرتي الصغيرة؛ لكي نتناول معها الإفطار.
كنّا في تمام الساعة الخامسة وكان الوقت يداهمنا؛ فلا بد من أن أسرع..
كانت منى تجلس بجواري على المقعد الأمامي, وكانت هبة ذات الأعوام العشر ممسكةٌ جهازها النّقال, صامتةً على المقعد الخلفيّ وبجوارها أحمد, يتأمل الطبيعة الخلّابة من نافذة العربة.

وكنتُ أنا شارد الذهن, منشغل البال بالمناقصة الجديدة التي سأشارك فيها مع صديقي أنور.

كانت نظرات منى تتجول داخل وجهي, تطوق إلى الحديث, ولكنّي كنتُ أهاب المواجهة؛ فظللت أتجرع من البلاهة كؤوس؛ فإذ بها تنتزع تلك الكؤوس وتسحقها..

-إبراهيم, أنا عايزة أكلمك في حاجة مهمة أوي.
-طب, ممكن نأجل الكلام ده دلوقتي؟ أنتِ شايفة أنا سايق بسرعة ازاي, وآذان المغرب قرب يا منى!
-لا, لازم تسمعني يا إبراهيم, أنتَ عارف كويس إنّي كلمتك في الموضوع ده قبل كده, وكل مرّة ترفض وتتحجج بأي أسباب! بس, خلاص أنا معدتش هقبل أي أعذار!

-موضوع إيه؟ أنا مش فاهم!
-موضوع الشغل يا إبراهيم, أنا قولتك كذا مرّة, أنا عايزة أشتغل.
-طب وولادك يا منى؟ هتعملي فيهم إيه؟!
-الولاد كبروا خلاص, هبة وأحمد يقدروا يعتمدوا على نفسهم في كل حاجة, وهو معنى إنّي هشتغل إنّي ههمل في بيتي؟ أكيد لا! بس, أنا عايزة أشوف ناس, أشم هوا جديد, أتكلم مع أي حد!
-تتكلمي مع أي حد؟ ما إحنا معاكِ أهو!
-مين اللي معايا يا إبراهيم؟ أنتَ معتبر نفسك عايش معانا؟ أنا أصلاً مش هتكلم في الموضوع ده؛ لأنّي زهقت منه وانتهى بالنسبة ليّ, وعارفة إنّك مش هتبطل تشتغل بالشكل ده, هو أنا بشوفك إلّا في المناسبات, أنا مستحملة عشان عارفة إنّك بتحبّنا, بس أول ما ها أرْجَع من البلد هنزل وهشتغل!

فشرع هبة وأحمد يمطراني بنظرات فحواها -كفى!-؛ فإذ بعقلي يقفز برعونة, يتخبط هنا وهناك؛ فيصطدم بأسلاكٍ شائكة تطوّقه من كافةِ الجوانب.

كنتُ كالأخرق الذي يقوده ثورٌ معصوب العينين, يُطلق القذائف في كل من حوله؛ فتحرقها وتحرقني, وتقتلها ولا تقتلني.

لا, ليس هذا! لم يحدث, لم تفقد العربة توازنها, لم تنجرف العربة تحت إطار تلك الشاحنة الملعونة, لمْ أفقدكم! لا! لا! بلى..

سُحقت كل دقاتي, سحقتي يأيتها الشاحنة كل ما أحب, كل ما لدي. لم أُسحق! كيف لم أُسحق معهم؟ كيف أتنفس وهم لا يتنفسون؟

هأنا أتلمّس الآن وجهي, جسدي, ما زلت أمتلك يدان, قدمان, ما زال الهواء يدخل ويخرج من هذه الرئة!

فلأحطم هاتين القدمين, وأهشّم هذه الرأس, وأشق هذا الصدر؛ فأستأصِل منه القلب؛ وأقذفه بعيداً عن تلك الشاحنة..

آهٍ يا إلهي
وآهٍ من لوعةِ قلبي
أأكونُ أنا هو القاتل والقتيل؟
الباكي و من ألقى بههم في ظلمات القبر العتيم؟
فلولا خشيتي من عقابك
لكنت معهم تحت الثرى أُقيم

الغضب وحشٌ يطلُّ من أعين مغيبي العقل والبصيرة, ينفثُ النيران؛ فيقيم الحروب, ويشرّد الأطفال, يدثّر النساء بالسواد, يطمس من القلوب بقايا حبٍ قد كان يروى بالورود؛ فمعه موتٌ للآخرين بلا رفق؛ فأخذت أمّزق كل ما تبقى من هذه الصفحة, صارخاً بها: -سحقاً لكِ! لقد اكتفيت منكِ!-

*****

وأفيق من كابوسي على وجه الرحمة, على وجهها؛ فكيف يا حبيبتي أدركتِ موجعي؟ وكيف لا؟ فأنتِ أمي ومنك مولدي.
كم كنتُ أود أن أظل أنا الصغير ولا أتألم؛ فلا تتألمي, وأن أكون عكّازاً لكِ في كبَرك؛ فإذ بكِ عكّازٌ لآلامي.
وها هي يديها تجذبني بقوّة..

-فُوءْ بقى! كده حرام!
وإذ بيديها المرتعشتان تتحولان ليديّ مبارزٍ شاب..
-أنا معدتش هسيبك تضيّع نفسك أكتر من كده, أنا عشت عمري كلّه عشانك بس؛ يبقى لو هسيبك كده, عمري كلّه ضاع!

ووجدتكِ تبكين يا غاليتي, ولم أكن معتاداً عليكِ تذرفين الدمع, كنتُ أنا من يتحصّن بين جدران قلاعك, أُلقي كل أمتعتي, ألهو, أركض؛ فأنثر الحبّ في برج حمامك؛ فأطعمه, ويطعمني بإبتساماتٍ ونظراتٍ تُغدقني حبّاً لطفولةٍ عشتها بين أحضانك, وهأنا أعود طفلاً بين يديكِ, أقصُّ لكِ كلّ رواياتي ببكاءاتها, بخيباتها, بكل أجزائها, أروي لكِ رحلتي مع المطر, وصورة الطفل المتضور جوعاً.
.
فإذ بها تُخرس لساني..
-طفل إيه بس؟! قول أطفال! أنتَ عارف في كام يتيم ومريض وجعان وعريان هنا بس يا ابني؟ أنتَ فاكر إنك عشان بتاكل غيرك بياكل؟ عشان لاقي الغطا غيرك مش عريان؟ ياه يا إبراهيم.. دي كانت الدنيا بقت حلوة أوي, ومكنش هيبقى في ظالم ومظلوم, غني وفقير, شبعان وجعان..

واستمرّت أمي في مواصلة حاديثها, كان حديثها أشبه بصخرة أُلقت في مستنقع المياه الراكدة؛ فحثّت مياهه على الجريان..

وربتت أمي على ساعدي قائلةً..
-يلّا يا حبيبي الفجر قرّب, قوم اتوضأ عشان تصلي, واسأل ربنا الراحة.
فإذ بي مباشرة أتوضأ, وأُطيل في الوضوء؛ فرمقت وجهه يرتعد برداً بين قطرات الماء.. فبدأت في الصلاة؛ فيشجيني تأوّهُ جوعه في الركوع والسجود؛ فأُنهي صلاتي وعيناه مختطفةً إيايّ من كل الوجود..

لم أستطع في تلك الليلة أن أدلف إلى غرفتي؛ فجلست مطوّلاً على أريكةِ والدي؛ أراه هنا وهناك مقسماً عليّ أن أطعمه كسرة خبز؛ فأُهرول مسرعاً لإحضار كسرة الخبز واضعاً إيّاها في وعاءٍ زجاجيّ.

وعدوت بإتجاهه, تزين إبتسامته وجهه الشاحب, يقبل بنظراته كسرة الخبز؛

فإذ بقدماي هاتان تتعثران فوق صخرة؛ فيكسر الوعاءالزجاجي ومعه كسرة الخبز تغشيها ذرّاتٌ من الثرى؛ فيتقدم الصغير مسرعاً نحو الوعاء وبقايا الخبز, مطلقاً لنظراته العنان ليلتقط ما تبقّى من الخبز؛ فينهش بيديه الثرى؛ لعلّه يهنأ بقطعه منه يسد بها جوعه..

فتتأوّه يداه من جرح الوعاء الزجاجيّ؛ فيبتعد هارباً بألمه, ودمائه, وجوعه.

وظللت أُناديه لعلّه يسمعني..

أيّها الصغير!

أيّها الجائع!

ولكن كل نداءاتي ذهبت هباءاً, واختفى إلى حيث لا أعلم.

تسلل ضوء الشمس الخافت إلى عيني, أدركت عندها مجيء الشروق؛ فترجلّت في كل أرجاء المنزل ذهاباً وإياباً..

لمْ يكن للوقت قيمةٌ في عيني؛ فأنا هنا فقط بجسدي, ولكن روحي مغتربة الزمان والمكان..

أكاد أجن, أجوب كل الأماكن بحثاً عنها؛ لكي تستقر في هذا الجسد؛ فيهدأ ويرقد بسلام.

حتى أسترق إلى سمعي صوت طرقٍ خجِل؛ فاتجهت إلى الباب؛ فهأنا أراها من جديد؛ فوجدتني ابتسم..

يا الله! بعد كل تلك العذابات ترسل دائماً رحمةً من رحماتك.. أجدكِ يا أملُ أملاً أمامي.. يتساقط الدمع؛ فأغتسل من كل آلامي, وها هو صوتكِ الرقيق يهمس مجدداً بداخلي..

-يا عمو, أنا جبت الدوا لتيتا بدرية. هي نايمة ولا إيه؟

وإذ بأمي تدرك مجيئها؛ فطلبت منها أن تشاركنا الإفطار؛ فدلفنا سوياً إلى المطبخ؛ فأجد أمي تسرد لأمل عن أوجاعي, وتتطرق إلى التشابه بينها وبين ابنتي

هبة؛ فأراها تخرج من المطبخ على وجهها نظرةٌ طفولية ممتزجة بالشفقة.

وبالرغم من عزوفي عن تناول الطعام, لكنني وددت أن أؤنس وحدتي بهما, أن أرسم ملامحهما بعيناي وهما تبتسمان, وهما تتنفسان الهواء, وهما تتبادلان الأحاديث, وهما تتناولان الطعام..
فهذا كافٍ لي لكي تُملَء معدتي الفارغة.

ولكن ها هو يعود من جديد, يُبكي حاله أمامي؛ فإذ بي أوقف حديثهما بكلماتٍ غير متوازنة..
-هبة, آسف.. أمل..
فيصبغ الصمت أركان الغرفة, تحدق والدتي بوجهي, وتحدق أمل بوجهها, ولكن لا لبد أن استمرّ في حديثي, أن أسرد لها عن ذاك المنزل الصغير, وذاك الصغير القاطن وسط الجوع والبرد.

واستمرّت أمل تلح عليّ أن أريها ذاك المنزل, حاولت المراوغة في البداية, ولكن أمام إصرارها المستميت طاحت كل مقاومتي.
توجّهنا مباشرةً إلى منزل الصغير, بقوالبه الشاكية, ووجدت من أمل الفتاة الصغيرة, فتاةٌ أخرى مقدامة, متحلّيةً بالشجاعة, تطرق على ذاك الباب بدون خوفٍ أو خجل..
ولجت مجدداً تلك السيدة, ولكن هذه المرّة لم أسمع صوت الصغير, لم أستمع إلى صوت جوعه؛ فبدأت الهواجس تجوب بخاطري, تتناوب على شلّ تفكيري وجسدي..

هل حدث له مكروه؟
أيمكن أن يكون.. من الجوع والبرد؟
فإذ بي أعود مجدداً ذلك الأخرق الذي لم يتبق له غير ذلك اللسان, مرتفعاً

بصوته..
-الولد فين؟ ردّي عليّا! قوليلي حصل له إيه!

مجدداً ينتصر غضبي عليّ, أخذ يسدد لكماته بوجهي؛ حتى أفقدني التوازن..
-قصدك بلال؟ بلال جوّه نايم! أنتَ فاكر ربنا هيسبنا, لا! ده ربنا كريم, بعتله لقمته وهدمته!
استيقظ بلال من سباته, يدنو بإتجاهي, أراه ويراني؛ فوجدتني أضمّه بقوّة إلى صدري حتى كدت أن أقتلع ضلوعه؛ فنظرت في عينيه, ترآت لي مئاتٌ من الأسئلة, ولكن عجز لساني عن الإجابة..

وانهزمت مجدداً؛ فعدوت وأمل تعدو ورائي, حتى اختبأت مجدداً داخل غرفتي, تخاطبني نفسي وأُخاطبها..
نتحدث..
نتجادل..
نتشابك..
أستتر منها؛ فما لبثت إلّا تجدني محدقةً فيّ معاتبةً, تسأل ولا أجيب..
هل تراك فرحاً بكل هذا المال؟
هل اقتنصت الراحة به؟
ألم تكتفِ به؟
هل استطاع أن يشهّيكَ لذة الطعام؟
هل استطاع أن يمنحك دفء النوم؟
فلمَ تغفو وعيناكَ مفتوحتان؟
وترى الطعام أمامكَ ولا تتذوّقه؟
هل تستطيع أن ترتوي والظِماء من حولكَ يسيرون؟
أن تكتسي الثياب وبالقرب منكَ عراةٌ يتجمدون؟
يفترشون الثرى لكي يتدفئون..

فوجدتني أُعلن بِدء محاكمتي!
أقرأ - أناالمتهم الوحيد والدفاع لرئيس المحكمة - سطوراً من حياتي السابقة, مفتّشاً بين الكلمات عن دليل براءتي؛ فأجدني لا أستحق سوى الإعدام!

أن أبقى مستنشقاً لهواء هذه الغرفة بصرخاتها, أن أبقى متلحفاً بصفحاتها, تطاردني يميناً ويساراً, تلعقني بأنيابها..
وليتها تكون الخاتمة! بل تعيد الكرّة مرّاتٍ ومرّات؛ فتلفظني مجدداً من بين طيّاتها, وأعود مستنشقاً هواءها بكل صرخاتها متلحفّاً بها: فوجدتني أقفز كالمخبول لأسفل, أقترب من الهاتف الأرضيّ..

كم كنتُ نسيت وجوده في عالمي الجديد!
فاتصلت مباشرةً بصديقي أنور, أقصّ له كل ما يجيش به صدري, مقسماً عليه المجيء..

-أنور, أرجوك حس بيّا, أنا الفلوس معدش ليها قيمة عندي, مجرد شويّة ورق في عيني, ياترى الورق ده ممكن يرجّع منى والولاد؟ ممكن يرجّع لي الإبتسامة اللي اختفت من حياتي؟ سيبني يا أنور, أحاول أخلّي غيري يبتسم, يمكن ساعتها ابتسم. سيبني أحاول أريّح ضميري, يمكن ساعتها أعرف أنام. هتصدقني لو قولتلك إنّي حاسس لأوّل مرّة إنّي إنسان بجد, الإنسان اللي ربنا خلقه عشان يعبده وعشان يحس كمان بباقي عبيده, مش يكون هو بس كل العالم, وباقي البشر عدم, قول لي يا أنور هقابل ربنا إزاي وأنا معايا كل الورق ده, وجنبي فقير يحلم بس إنّي أحس بيه؟

-يعني أنتَ يا إبراهيم, عايز تصفّي كل فلوسك في الشركة, وتعيد بُنا كل بيوت القرية القديمة, وترمم المدرسة كمان؟
-لا, وكمان هبني مصنع ليّا وللولاد, مصنع جنب المدرسة, يتعلموا ويشتغلوا

كمان في نفس الوقت, تعالى معايا يا انور, صدقني مع بعض هنشغل المصنع وهننجح كمان!

-مش عارف أقولك إيه يا إبراهيم, سيبني بس شويّة أفكّر وأردّ عليك, أنتَ عارف إن الموضوع صعب مش سهل يا صاحبي..

*****

- البداية -

ما زالت نفسي تسألني, هل سيكون لي بدايةٌ جديدة؟
شعاعُ نورٍ يضيء فجري
قطرة ماء تسقط في صحرائي
تنبت برعم الغد وسط دمعاتي
هل ستنجو يوماً نفسي من كل صرخاتي؟
وتنعم بقيلولةٍ من كل آناتي
ويدور كوكبي في فَلكِ فضائي
وهل سأعود مرةً أخرى لاستنشاق هوائي؟
وهل ستعود لسمائي إحدى نجماتي؟
تنيرُ ظلمة الليل فتعود لي إشراقاتي
فيسقي الندى ورداتي
فتخضبُّ أرضي وترتع أغنامي
هل سأستيقظ يوماً على زقزقةِ عصافيري؟
فنرقصُ سويّاً لغدٍ تنيره قناديلي
تمتزج ألوانُهم مع حمرة ورودي
فتتهلل أساريري..

وما زلت أنتظر أنور, تنتظره كل دقائق حياتي, تنتظره جدراني الملوّنة بكل ذكرياتي, مختلساً لحظاتٍ منها فأرتمي بين أحضان أمي, سارداً لها كلّ ما دار بيني وبينه, وكيف أنني أعدت اكتشاف نفسي, وأنّ الهواء تلمّس طريقاً نحو

رئتاي, وأنني لم أعد أهاب شبحي المحدّق فيّ هنا وهناك..
آه, وستبقين يا غاليتي سلاحي الذي أقضي به على كل تساؤلاتي؛ فأنتقل مبتهجاً نحو غدي الأفضل..

-إبراهيم ابني, لو قلتلك النهارده أكتر يوم نفسي أشوف فيه أبوك أو حتى أكلّمه مرّة واحدة بس هتصدقني؟
وإذ بقطرات اللؤلؤ المترقرقة من عينيها تثير خوفي..
-أبويا؟ ليه يا أمي؟
-نفسي أشوفه, أكلّمه, أقول ليه, أنّي عرفت أربي ابنه.. أنت عارف يعني إيه أم تحس إنّها نجحت بجد في تربية ابنها؟ التربية يا بني مش بس إنّك نجحت في كليّتك وبقيت دكتور في الجامعة, وكمان غني. لا, التربية إنّك بقيت إنسان بجد, دلوقتي أنا مش خايفة إنّي أموت, عشان عارفة إنّي ربيت إنسان خايف من ربنا, هيدعي لي لمّا أموت, مش هيكنز في الفلوس ويستخسر يتصدق على روح أمّه, ويمكن ربنا ساعتها يابني, يغفر لي ويرحمني برحمته.
وأخذت أتحسس دمعاتها, مقبّلا إيّاها, أسألها أن تدعو لي..
أجزت بعدها لقدماي مهمّة التوغّل في قريتي الصغيرة؛ فإذ بي أشاهدها بعين رجلٍ آخر, أنسج لها صورةَ ابنٍ قد ضل طريقه وعاد يرتمي بين أحضانها..

فإذا بتلك الشوارع الضيّقة رحبة..
ورائحة الغبار المعبّأة بالدّخان نسمات صيفية في يومٍ ظاعن الحرارة..
وتلك البيوت البدائية البناء ناطحات سحاب تناطح بعلوّها قمم الجبال..
ووسط هذة الرؤية الجديدة, أراه أمامي..
بلال, شعاعُ النور الذي تردّى في بئر ضميري فأضاءه رغم حلكته الشديده..
وإذ بينابيع المياه تفيض من شراييني, بعد أن ظننت جفافها..
بلال! أيّها الصغير!
أنا هنا الغريق, فلتمسك بيدي, اجعلني أتشبث جيداً بزورقك, فأنتَ زورقي

الوحيد وسط هذا البحر الهائج..
أنني هنا يا صغيري الفقير, وليس أنتَ.

فأنا الفقير على الله أشتكي
خزيي وضعف حجتي
أسأل الله نوراً
أنير به ضالّتي
ليس الهوان هوان المال
بل روحٌ تفتقر السؤال

وإذ بطفلي البريء يحدق في باستغراب؛ فأنا بالنسبةِ له ذاك الطارق الغريب الأطوار الذي أتى ورحل بلا استئذان, ووجدت دموعي تستعطفه ألّا يغلق باب الأمل في وجهي, أن يبذر في أرضي بذور الحياة؛ فترتوي روحي مع مولد بتلاتها. وقبضت على يده الصغيرة, كم كنتُ أخشى أن أفقده!
أن تتسرب قطرات الماء من بين يداي بعد أن أُنهك جسدي وأزداد ظمأةً في رحلة حياتي الحالية, وها هو صوته الطفولي يدنو من أذني..
-مالك؟ أنتَ عايز تاكل؟ إحنا في البيت دلوقتي عندنا أكل, أصل فيه ست طيبة أوي جت وجابت معاها أكل كتير لينا ولكل اللي حولينا, تعالى بس وأنا هدّيك الأكل اللي أنتَ عايزه.

فلتصمت يا بلال؛ فأنا هنا المذبوح تحت قدميك, ذبحت خجلاً من تضوّر ضميري, كان هذا الضمير يلفظ أنفاسه الأخيرة, حتى جئت أنت وأغدقته بألمك؛ فأخذ يترنّح مغيب الوعي, يتساءل من يعيده من شبه إنسان يودّع أنفاسه لإنسانٍ قلبه قابلٌ للنبض..

وإذ به يواصل حديثه البريء.

-لو مش قادر تمشي, أنا أجبلك الأكل هنا!
-لا يا بلال, أنا كنت جعان لغاية ما شفتك, بس عايز منك حاجة تانية خالص, عايزك تجيب كل الولاد اللي كانوا جعانين زيّك قبل كده, أنا عارف إنّك شبعان دلوقتي والحمد لله, بس أنا عايز أشوفكم كلكم يا حبيبي, ونكون كلّنا صحاب, أنا هوريك بيتي دلوقتي, إيه رأيك في الكلام ده؟

فيندفع بلال بداخلي وكأن قلبه البريء تطرّق إلى ما يدور في خاطري.
وفي اليوم التالي, إذ بطرقاتٍ عدّة تطرق على أُذاني, طرقاتٍ لم تكن متشابهة, بل كانت عشوائية ومتفرّقة, تتشابك تلك الطرقات؛ فتعزف في أُذني لحن البقاء.

فأرى أمامي أمل والعديد من بلال, كانوا كُثُر, غدوت فجأةً لا أجيد العدّ, كانوا يتشابهون في النظرة, نظرةٌ يترجّل منها الخوف؛ فهم جميعاً أخوة, أبناء قد أنجبهم الفقر.
وجدتني أُلقي بهذا الجسد المكبّل بالأوجاع بين أيديهم الصغيرة؛ فنحال جميعاً إلى كرة زجاجية أقصى أمانيها ألّا تُكسر, مكثنا طوال اليول نتبادل أطراف الحديث, نقصّ حكاياتنا, أسرارنا, ضحكاتنا, أمنيّاتنا, دمعاتنا, لم نعد ندرك إن كان وقتنا ليلاً أو نهاراً.

وتتوالى الأيام والأشهر, والتقارب يزداد بيننا أكثر وأكتر؛ حتى أصبحت أدور معهم في دائرتهم اليوميّة, إلى أن جاء صديقي أنور..
كم كنتُ أرهب هذه اللحظة؛ فمعها بداية مولد جديد لنا جميعاً أو ورقة وفاة لكل الأحلام والأمنيات.

أراكَ مبتسماً يا أنور, أكاد أجزم من غير أن تنطق شفتاك ماذا تودّ أن تقول؛ فأنا أعلم مغزى هذه الإبتسامة؛ فوجدُتني أقفز كدت أن أصير طيراً يحلّق بأمانيه في عنان السماء.

-قول يا أنور أنك معايا! صح يا أنور؟
-يعني أنا هروح منّك فين, للأسف مش قادر أعيش من غيرك.
وإذ بي أحمل أنور, رغم ضخامة حجمه وأُلف به حول عالمي الجديد.
يا الله كم أنت كريم!
كم أنت رحيم!
كم أنت عظيم!
كل شيءٍ له في هذا الكون غاية, ولكننا نجهل سر هذه الغاية حتى يرسل لنا الرحمن بضعاً من رحماته؛ فتنكشف لنا الأسرار, وتتضح لنا الصور والغايات.

وتنقضي أشهرٌ عدّة من العمل المتواصل, الكثير والكثير من العمل, بدأنا في ترميم المدرسة وإعادة بناء المنازل المتهالكة, وها نحن نبتدئ في بناء مصنعنا, مصنع الأمل.
الأمل في ترميم أرواحنا المتهالكة, العطشة للتراحم والتوادّ؛ فنبني بأرواحنا جسوراً نحو المستقبل.
تمتزج أجسادنا جميعاً؛ لتصبح مخلوقاتٍ متحابّة بقلب إنسانٍ واحد.
ومع مواصلة بناء قوالبه الحجريّة؛ كنّا نبني بداخل قلوبنا قوالب من الحب.
وها هي أمل تقترب منّي حاملةً العديد من الصور..
-شايف يا بابا إبراهيم, الصور جت أهى!

وبدأت أنظر إليها, أتأمل الصور بعين, وأمل بعينٍ أخرى, وإذ بباقي يلتفون من حولي, كلٌ بصوتٍ واحد..
-عايزين نشوف الصور يا بابا إبراهيم!

وكم ظننت ألّن تنعم أُذناي بدوي هذة الكلمة مرة أخرى!
هأنا أراهم يبتسمون؛ فأبتسم
يضحكون؛ فأضحك

يلاحقون أجنحة الفراشات, ويصبغون بألوانها أعينهم؛ فإذ بعيناي أكثرهم صبغةً.
وإذ بي أغدو طفلاً تحررت صفحته من كل الذنوب, يتسابق مع النجمات في سماء كونه, ينهل الأخرين من كوب بهجته.

وإذ بي أستشعر فجأةً وسط كل فرحاتي بريق عينيها يطوف بداخلي, يطرق على نبض فؤادي؛ فيوقظه.
أراها من بعيد تعدو, تبتسم, تلوّح؛ إذاً هي تسامحه!
أجل, هي تسامحه..
تمنحه بقايا أمل في لقاءٍ أخر؛ فيركض ويركض, مقبّلاً كل نسماته وكل ورداته, وها هو يشتاق لوجه أمه؛ فيعدو مسرعاً إليها, حاملاً صفحاتٍ جديدة في حياته؛ فيرتمي بين أحضانها, مشاطراً معها إبتساماته.

ثم يتجه إلى غرفته..
يتأمل صفحاته الجديدة, بدل المرة, مئات المرات!
يدور في خلده سؤالٌ يؤرّقه..
هل يستطيع؟
فيخطو بخطاً متثاقلة نحو دولابه, محاولاً فتحه, ولكن يأبى هذا الدولاب القديم أن يفتح؛ فيعيد الكرّة مرةً أخرى؛ فيجده أمامه, يواجهه وجهاً لوجه..
كم يخشى أن يلمسه!
ولكن لابد من المجازفة؛ فهناك صفحات أخرى في حياته.
لا بد من وضعها بداخله؛ فتتسلل أنامله بخوفٍ, وها هو يتحسسه, يلمسه, يقبض بيديه عليه, يفتحه..
ها هو يستطيع!
فينبهر بنفسه, ويلقي بصفحاته الجديدة بداخله, ولكن ما زال ينتابه سؤالٌ آخر..

متى يستطيع أن يقلّب كل صفحات صندوقه الخشبيّ؟
ولكنّه يغلقه هذه المرّة وعلى وجهه إبتسامة, إبتسامة من سعادة الآخرين..

لا تغربي يا شمس حبيّ الحزين
أُنثُري في أرضي الجرداء حب السنين
نرتوي سويّاً فنغدو آمنين محلّقين
نسطّر الفرحة داخل قلوب المعذّبين
فنرتشف قطراتٍ من الإبتسامة مهللين
رحماك ربّي, ربَّ العالمين

*****

رأيك في الكتاب

بتكتب روايات .. قصص .. شعر أو مقالات
بتكتب عربي أو انجلش ..
أو حتي بترسم .. تواصل معانا و هنساعدك
تلاقي مكان لابداعاتك

تواصل معنا:-
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
website : www.fasla.org
E-mail :- Fasla.Pub@Gmail.com
Facebook.Com/Fasla.Pub